شركة الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers

بَيْتُ الجِنِّ



إيمان الخطيب
رسوم: علي الزيني

بَيْتُ الجِنِّ

ⓒ الدار العربية للعلوم ناشرون ، ١٤٤٧هـ

الخطيب ، إيمان
بيت الجن. / إيمان الخطيب -ط١. .- الرياض ، ١٤٤٧هـ
١٣٩ ص ؛ ١٤*٢١سم

الطبعة الأولى
1447 هـ – 2025 م

رقم الإيداع 1447/56
ردمك 978-603-93819-1-4

شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر
Arab Scientific Publishers
السجل التجاري 1010921463

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

بَيْتُ الجِنِّ



إيمان الخطيب
رسوم : علي الزيني

شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر
Arab Scientific Publishers

المحتويات

كابوسُ عُمَرَ الأَسْوَأُ

«لكنْ يا أبي... هذا لَيْسَ عادِلًا!» قالَ عُمَرُ.

«سَتَتَعَرَّفُ إلى أَصْدِقاءَ جُدُدٍ هُناكَ يا عُمَرُ.»

«ماذا عَنْ شَهْبا؟ وَأَيْضًا ماذا عَنِ الأَرانِبِ الّتي قُلْتَ إنَّنا يُمكِنُ أنْ نُرَبِّيَها... وَ... لا، لا، لا... أَرْجوكَ يا أَبي، لا، لا يُمْكِنُنا الانْتِقالُ إلى المَدينَةِ الكَبيرَةِ!»

خَفَقَ قَلْبُ عُمَرَ بِسُرْعَةٍ؛ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ سَيَقْفِزُ عَبْرَ الغُرْفَةِ مِثْلَ الأَرْنَبِ. كانَتْ عَيْناهُ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلى وَجْهِ والِدِهِ، وَكانَ يَأْمَلُ أنْ يَكونَ هذا الإِعْلانُ عَنِ الانْتِقالِ إلى الرِّياضِ مُجَرَّدَ مَزْحَةٍ، أَوْ كابوسًا سَيَسْتَيْقِظُ مِنْهُ. لَكِنَّهُ لمْ يَكُنْ كَذَلِك. كانَ والِدُهُ جادًّا حَقًّا، وَتَجَنَّبَ النَّظَرَ إِلَيْهِ.



نَسِيَ عُمَرُ تَمامًا الكَعْكَةَ الّتي وَضَعَتْها والِدَتُهُ على الطّاوِلَةِ أمامَ الجَميعِ. فهِيَ تُعِدُّ أَلَذَّ «كيكَةٍ» على المَوْقِدِ بِطَريقَتِها الخاصَّةِ. كانَتْ أَفْضَلَ حَلْوى بالنِّسْبَةِ إلى عُمَرَ، فَرائِحَتُها تَفوحُ بِالْهَيْلِ. وَلَكِنِ الآنَ عُمَرُ مُنْشَغِلٌ بِمَوْضوعٍ مُهِمٍّ؛ فَلَمْ يَشُمَّها، ونَسِيَ وُجودَها أَمامَهُ. كانَ ذِهْنُهُ في مَكانٍ آخَرَ.

«أُمّي!» نادى عُمَرُ والِدَتَهُ مُسْتَنْجِدًا بِها.



وَلَكِنَّها نَظَرَتْ إلى والِدِهِ. ماذا عَساها أنْ تَقولَ؟ كانَتْ قَسَماتُ وَجْهِها صامِتَةً، وَفَمُها مُغْلَقًا بِإِحْكامٍ. هَكَذا يَبدو وَجْهُها عِنْدَما لا تُريدُ أنْ تَقولَ شَيئًا. لَكِنَّ عُمَرَ يَعْلَمُ أَنَّها غَيْرُ سَعيدَةٍ.

«أَنا مُتَأَكِّدٌ مِنْ أنَّ أُمّي لا تُريدُ الذَّهابَ. ماذا لوْ بَقينا نَحْنُ الاثْنانِ هُنا؟» اِقْتَرَحَ عُمَرُ بِلَهْفَةٍ.

«سَنَذْهَبُ جَميعًا كَعائِلَةٍ. ويُمْكِنُنا أنْ نَصْطَحِبَ شَهْبا مَعَنا. مَنْ يَدْري؟ رُبَّما يُمْكِنُنا تَرْتيبُ إِحْضارِ بَعْضِ الْحَيَواناتِ الأُخْرى أَيْضًا.»

«أَتَعِدُني؟»

«أَعِدُكَ بِأَنَّني سَأُحاوِلُ. وَسَآخُذُكَ مَعي لِنَبْحَثَ عَنْ مَنْزِلٍ مُناسِبٍ، فيهِ ساحَةٌ تَصْلُحُ لِتَرْبِيَةِ الْحَيواناتِ. سَعْدُ، سَتَبْقى هُنا لِلاعْتِناءِ بِالْأُمورِ أَثْناءَ غِيابي.»

فَأَوْمَأَ سَعْدٌ بِجِدِّيَّةٍ، لَكِنَّ عُمَرَ اسْتَطاعَ أنْ يَرى أَنَّهُ مُتَحَمِّسٌ؛ مُتَحَمِّسٌ لِلذَّهابِ إلى الْجامِعَةِ، ومُتَحَمِّسٌ لِلانْتِقالِ إلى المَدينَةِ الكَبيرَةِ، ومُتَحَمِّسٌ لِتَرْكِ المَزْرَعَةِ وديسَةَ وراءَهُ. أَخوهُ الأَكْبَرُ سَعْدٌ يَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ تِسْعَةَ عَشَرَ عامًا. أَمّا سَمَرُ فَتَبْلُغُ ثَمانِيَةَ عَشَرَ عامًا. عُمَرُ هُوَ الأَصْغَرُ في عائِلَتِهِمُ الّتي تَتَكَوَّنُ مِنْ خَمْسَةِ أَفْرادٍ، وَقَدْ أَكْمَلَ عامَهُ العاشِرَ مُنْذُ شَهْرٍ، ولمْ يكنْ لَدَيْهِ أيُّ اِهْتِمامٍ بِالانْتِقالِ إلى مَدينَةٍ جَديدَةٍ، ناهيكَ عَنْ مَدينَةٍ كَبيرَةٍ. فَهُوَ يُحِبُّ حَياتَهُ في ديسَةَ، حَيْثُ والِدُهُ مَعْروفٌ بِمَهارَتِهِ مَعَ الْحَيَواناتِ، وخاصَّةً الإِبْلَ. فَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ طَبيبًا بَيْطَرِيًّا، إلّا أَنَّهُ يَعْرِفُ الكَثيرَ عَنْ كَيْفِيَّةِ العِنايَةِ بِالحَيَواناتِ. في الواقِعِ، هَذا هُوَ ما يَكْسَبُ مِنْهُ رِزْقَهُ، وعُمَرُ يُريدُ أنْ يَكونَ مِثْلَهُ يَوْمًا ما.

جاءَ إِعْلانُ والِدِهِ قَبْلَ أَسابيعَ قَليلَةٍ مِنَ الامْتِحاناتِ النِّهائِيَّةِ، بَيْنَما

كانوا يَحْتَسونَ الشّايَ بَعْدَ الغَداءِ. إذْ أَعْلَنَ الأَبُ أَنَّهُ قَبِلَ عَرْضَ عَمَلٍ في الرِّياضِ حَتّى يَتَمَكَّنَ سَعْدٌ وَسَمَرُ مِنَ الذَّهابِ إلى الجامِعَةِ.

عُمَرُ في الصَّفِّ الرّابِعِ، ويَدْرُسُ في المَدْرَسَةِ الابْتِدائِيَّةِ الوَحيدَةِ في ديسَةَ؛ وهِيَ قَرْيَةٌ صَغيرَةٌ بالقُرْبِ مِنْ تَبوك في المَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعودِيَّةِ، لَيْسَتْ بَعيدَةً عَنِ البَحْرِ الأَحْمَرِ. والمَدارِسُ الأُخْرى الوَحيدَةُ المَوْجودَةُ هُناكَ هِيَ مَدارِسُ الأَوْلادِ والبَناتِ المُتَوَسِّطَةُ والثّانَوِيَّةُ؛ حَيْثُ تَخَرَّجَ أَخوهُ وأُخْتُهُ قَبْلَ عامٍ. عادَةً، الخِيارُ الوَحيدُ أَمامَ خِرّيجي الثّانَوِيَّةِ هُوَ البَقاءُ في المَنْزِلِ والمُساعَدَةُ في الحُقولِ. وقِلَّةٌ قَليلَةٌ مِنْهُمْ نَجَحوا في إِقْناعِ ذَويهِمْ بِالانْتِقالِ إلى إِحْدى المُدُنِ الكَبيرَةِ.

عُمَرُ يحبُّ أخاهُ وأختَهُ، ولَكِنَّ الانْتِقالَ أَسْوَأُ كَوابيسِهِ. فَهوَ يُحِبُّ ديسَةَ، وحَياتَهُ الّتي لا يَعْرِفُ غَيْرَها هُنا. وَلَدَيْهِ العَديدُ مِنَ الأَصْدِقاءِ، سَواءٌ أَكانَ في المَدْرَسَةِ أَمْ في القَرْيَةِ. لَكِنَّ السَّبَبَ الرَّئيسَ لِعَدَمِ رَغْبَتِهِ في الانْتِقالِ هُوَ أَنَّهُ لا يَتَوافَقُ كَثيرًا مَعَ أَخيهِ وَأُخْتِهِ. فَعُمَرُ فتًى قَرَوِيٌّ، فيما أَخوهُ وَأُخْتُهُ يُريدانِ أَنْ يُصْبِحا مِنْ سُكّانِ المَدينَةِ، مِثْلَ بَعْضِ أَصْدِقائِهِما الّذينَ ذَهَبوا إلى هُناكَ لِلدِّراسَةِ. لِماذا يَجِبُ على عُمَرَ أنْ يَنْتَقِلَ لِإِسْعادِ أَخيهِ وَأُخْتِهِ؟! لا شَيْءَ عادِلٌ عِنْدَما تكونُ في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِكَ!

الماعِزُ أَكَلَ كِتابي

وَبِالحَديثِ عَنِ الأَشْياءِ غَيْرِ العادِلَةِ، في وَقْتٍ لاحِقٍ مِنْ بَعْدِ ظُهْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ، جَلَسَ عُمَرُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى جِذْعِ نَخْلَةٍ خَشِنٍ في المَراعي العالِيَةِ، مُحاوِلًا الدِّراسَةَ لِامْتِحانِ الغَدِ النِّهائِيِّ. كانَتْ غُتْرَتُهُ البَيْضاءُ- الّتي يَرْتَديها الفِتْيانُ الْكِبارُ والرِّجالُ-



مُعَلَّقَةً على جِذْعِ النَّخْلَةِ، ومَرْبوطَةً حتّى لا تَطيرَ مَعَ الرِّياحِ. وكانَتْ نَسْمَةُ الهَواءِ البارِدَةُ تَهُبُّ حامِلَةً مَعَها مِنْ نافِذَةِ المَطْبَخِ القَريبَةِ رائِحَةَ الأَرُزِّ والمَرْقِ مَمْزوجَةً بِتوابِلِ أُمِّهِ الخاصَّةِ.

تَمَنّى عُمَرُ أَنْ يَجْرِيَ في الحُقولِ لِلْمَرَّةِ الأَخيرَةِ، حامِلًا غُتْرَتَهُ عَلى كَتِفَيْهِ، ويَتَسابَقَ مَعَ الرِّياحِ فَتُداعِبُ شَعْرَهُ. لَكِنَّهُ كانَ جالِسًا يُحاوِلُ الدِّراسَةَ مِنْ أَجْلِ الامْتِحانِ، فيما الماعِزُ شَهْبا تَقِفُ بِجانِبِهِ. حاوَلَ إِبْعادَها عَنْ كِتابِهِ بِعَرْضِ بَعْضِ التَّمْرِ عَلَيْها، وَلَكِنَّها لَمْ تَهْتَمَّ. بَلْ رَفَعَتْ عَيْنَيْها الحَزينَتَيْنِ نَحْوَهُ؛ فَهِيَ أَيْضًا تَوَدُّ الرَّكْضَ واللَّعِبَ مِثْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الصَّيْفُ بِحَرارَتِهِ الجافَّةِ الّتي لا تَنْتَهي.

لَمْ يَسْتَطِعِ التَّرْكيزَ على ما كانَ يَقْرَأُهُ؛ إِذْ راحَ يُفَكِّرُ في أَنَّهُ بَعْدَ غَدٍ عَلَيْهِ أَنْ يُساعِدَ والِدَهُ في العُثورِ على مَكانٍ في المَدينَةِ لِيَعيشوا فيهِ، مَكانٍ يُمْكِنُهُ هُوَ وشَهْبا أَنْ يَرْكُضا ويَلْعَبا فيهِ. بِالتَّأْكيدِ، هَذا أَهَمُّ مِنْ أَيِّ امْتِحانٍ مُمِلٍّ.

«يا عُمَرُ...!»

رَفَعَ عُمَرُ رَأْسَهُ عَنْ كِتابِهِ، وَإِذا بِصَديقِهِ سالِمٍ يَرْكُضُ نَحْوَهُ.

لَوَّحَ سالِمٌ بِغُتْرَتِهِ البَيْضاءِ نَحْوَ عُمَرَ، وصاحَ مُجَدِّدًا: «عُمَرُ... يا عُمَرُ... حانَ الوَقْتُ... حانَ الوَقْتُ... أَسْرِعْ، هَيّا لِنَذْهَبْ!»

يَسْكُنُ سالِمٌ في المَزْرَعَةِ المُجاوِرَةِ، وَهُوَ أَعَزُّ أَصْدِقاءِ عُمَرَ. وَرَغْمَ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ عُمَرَ بِسَنَةٍ وَأَطْوَلُ، إلّا أَنَّهُما يَتَشارَكانِ الأَسْرارَ، وَيَقْضِيانِ الوَقْتَ مَعًا، وَيَتَحَدَّثانِ عَنِ المَدْرَسَةِ والأَحْلامِ. لَكِنَّ ما يَحْصُلُ في

هَذهِ اللَّحْظَةِ لَيسَ حُلْمًا، بَلْ إِنَّهُ الحَدَثُ الّذي انْتَظَرَهُ عُمَرُ مُنْذُ شُهورٍ.

«ماذا؟ ماذا؟ هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ؟ أوه... لا يُمْكِنُني تَفْويتُ هذا... سَتَكونُ المَرَّةَ الأولى، وَرُبَّما الأَخيرَةَ! هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ يا سالِمُ؟ لَكِنْ، ماذا عَنِ امْتِحانِ الغَدِ!؟»

«رَأَيْتُ والِدَكَ يَذْهَبُ إلى هُناكَ بِسُرْعَةٍ... أَسَتَأْتي أَمْ لا؟»

«سَأَتَسابَقُ مَعَكَ... يا إِلهي! سالِمُ، يا إِلهي! لا يُمْكِنُ تَفْويتُ هَذا!»

«أَتَمَنّى فَقَطْ أَلّا نَكونَ قَدْ تَأَخَّرْنا!»

الآنَ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ عُمَرُ عامَهُ العاشِرَ، باتَ يُسْمَحُ لَهُ بِمُشاهَدَةِ النّاقَةِ وَهِيَ تَلِدُ! لَقَدْ شاهَدَ والِدَهُ سابِقًا وَهُوَ يُضَمِّدُ الجُروحَ، ويُعْطي الحُقَنَ، ويَفْحَصُ الأَسْنانَ، لَكِنَّ هَذِهِ حالَةٌ مُخْتَلِفَةٌ. إذْ إِنَّ «عَفْراءَ»- النّاقَةُ البَيْضاءُ الّتي تَعيشُ في المَزْرَعَةِ في وَسْطِ الوادي- على وَشْكِ الوِلادَةِ. عَفْراءُ ناقَةٌ مُمَيَّزَةٌ مِنْ سُلالَةِ «مغاتيرَ» النّادِرَةِ، وقيمَتُها أَكْثَرُ مِنْ 100,000 رِيالٍ. وَأَحْيانًا تُباعُ في المَزاداتِ بِأَكْثَرَ مِنْ مَلْيون! لِذا، مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تُقَدَّرَ قيمَةُ صَغيرِها بِثَرْوَةٍ حينَ يَكْبُرُ. هذا ما شَغَلَ تَفْكيرَ عُمَرَ وَهُوَ يُسْرِعُ بِلَفِّ غُتْرَتِهِ حَوْلَ رَأْسِهِ وَيَلْحَقُ بِسالِمٍ.

لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتٌ كافٍ لِإِعادَةِ كِتابِهِ إلى غُرْفَتِهِ؛ إذْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُغادِرَ فَوْرًا! لِذا، سَيَأْخُذُهُ لاحِقًا.

عِنْدَما وَصَلَ عُمَرُ وَسالِمٌ، كانَ والِدُ عُمَرَ واقِفًا بالْقُرْبِ مِنْ عَفْراءَ، وهِيَ ترغو (أَيْ تَصْرُخُ) مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ. كانَتْ تَجْلِسُ ثُمَّ تَقِفُ بِشَكْلٍ مُضْطَرِبٍ. وَعِنْدَما اسْتَلْقَتْ على جانِبِها أَخيرًا، ساعَدَها والِدُهُ في تَفْريغِ أَحْشائِها، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ بِالصّابونِ، وأَخَذَ عُلْبَةَ زَيْتٍ مِنْ

حَقيبَتِهِ الجِلْدِيَّةِ السَّوْداءِ، وَدَهَنَ يَدَيْهِ بِهِ لِيَجْعَلَهُما زَلِقَتَيْنِ. وبَعْدَ ذَلِكَ، أَدْخَلَ يَدَهُ في رَحِمِها لِفَحْصِ الجَنينِ. عَرَفَ عُمَرُ هَذِهِ الكَلِمَةَ لِأَنَّ والِدَهُ كانَ يَشْرَحُ لَهُ دائِمًا ما يَقومُ بِهِ مَعَ الحَيَواناتِ. إذْ لَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ كَطِفْلٍ صَغيرٍ لا يَسْتَطيعُ فَهْمَ أَشْياءِ الكِبارِ.

كانَ يَبْدو جادًّا جِدًّا.

نَظَرَ والِدُهُ إلى راعي عَفْراءَ، وَقالَ لَهُ: «جَمالُ، أَحْتاجُ إلى مُساعَدَتِكَ. فَالجَنينُ في وَضْعٍ غَيْرِ صَحيحٍ، لِذا سَأُحاوِلُ تَغْييرَ وَضْعِيَّتِهِ. الحَمْدُ للهِ أَنَّني وَصَلْتُ مُبْكِرًا. أَعْتَقِدُ أَنَّني أَسْتَطيعُ فِعلَ ذَلِكَ.»

فَهِمَ عُمَرُ أَنَّ الوَضْعَ خَطيرٌ، وَتَذَكَّرَ القِصَصَ الّتي حَكاها لَهُ والِدُهُ عِنْدَما اضْطُرَّ إلى تَغْييرِ وَضْعِيَّةِ الجَنينِ لِأَنَّ رَأْسَهُ لَمْ يَكُنْ في المَكانِ الصَّحيحِ، وَعَرَفَ أَنَّ الجَنينَ مَقْلوبٌ!

اقْتَرَبَ رَجُلانِ يَعْمَلانِ في المَزْرَعَةِ وَوَقَفا بِجِوارِ النّاقَةِ.

ثُمَّ قالَ والِدُهُ لِجَمالٍ: «ساعِدْني في طَيِّ ساقَيْها الأَمامِيَّتَيْنِ وَرَبْطِهِما، وَحافِظْ عَلى هُدوئِها.»

لِمُدَّةِ ساعَةٍ تَقْريبًا، قامَ والِدُهُ بِتَدْليكِ بَطْنِ عَفْراءَ بِلُطْفٍ لِتَغييرِ وَضْعِيَّةِ الجَنينِ. وَكانَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْها لِيُطَمْئِنَها، مُشَجِّعًا ومُهَدِّئًا إِيّاها. وَطَلَبَ إِلَيْها أَنْ تَرْتاحَ، ثُمَّ أَخيرًا نَظَرَ إلى عُمَرَ وغَمَزَ قائِلًا: «هَلْ أَنْتَ جاهِزٌ؟»

فَغَمَزَهُ عُمَرُ وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ. كانَ جاهِزًا بِالتَّأْكيدِ.

أَعْطى والِدُهُ غُتْرَتَهُ إلى أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ، وَجَلَسَ بِالقُرْبِ منِ عَفْراءَ، فَحَبَسَ عُمَرُ أَنْفاسَهُ.

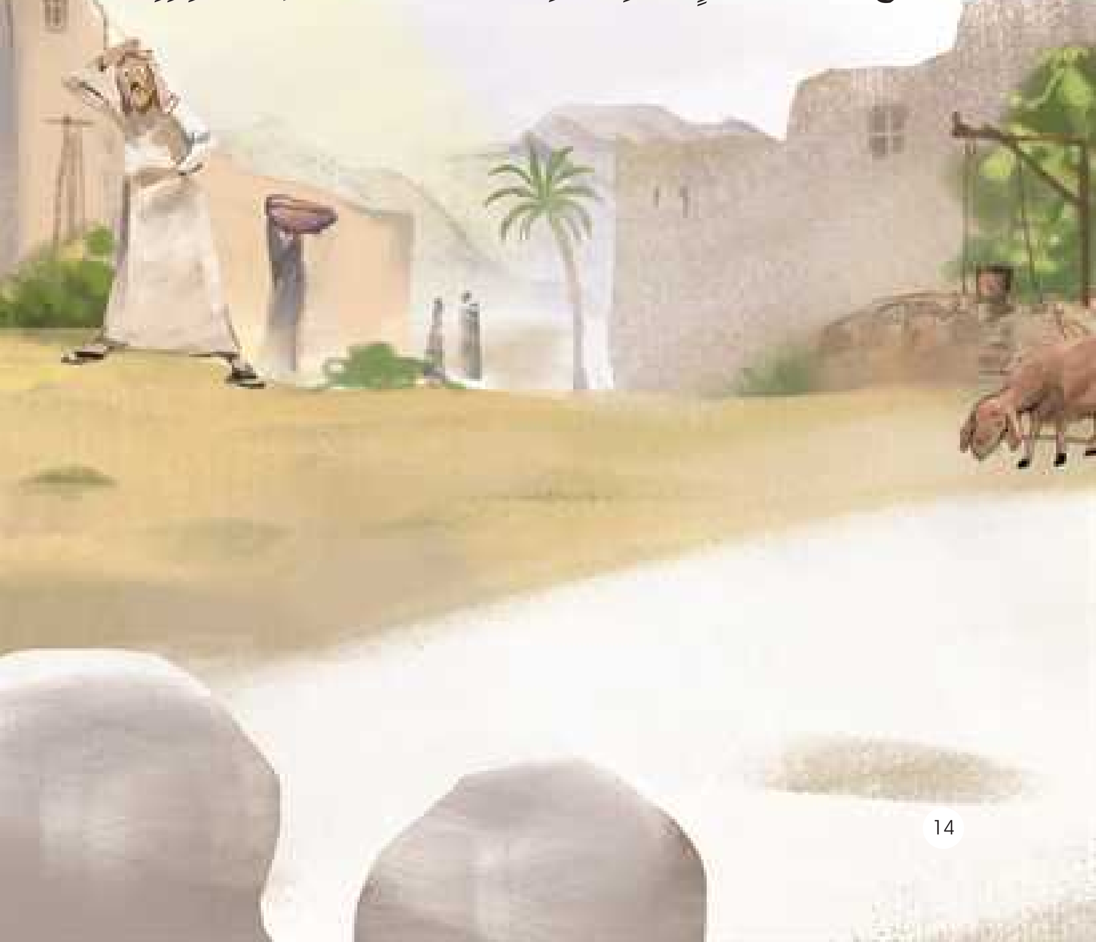
«جَمالُ، أَبْعِدْ ذَيْلَها إلى الجانِبِ.»

وَعَلى الفَوْرِ، أَمْسَكَ جَمالٌ بِذَيْلِ النّاقَةِ عَفْراءَ بِلُطْفٍ وَثَباتٍ، فيما راحَتْ تَئِنُّ.

فَجْأَةً، بَدَأَ عُمَرُ يَرى شَيْئًا يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْها الخَلْفِيَّتَيْنِ. ثُمَّ راحَتْ عِبارَةُ «الحَمْدُ لِلَّهِ» تَدورُ عَلى أَلْسِنَةِ الحاضِرينَ هَمْسًا.

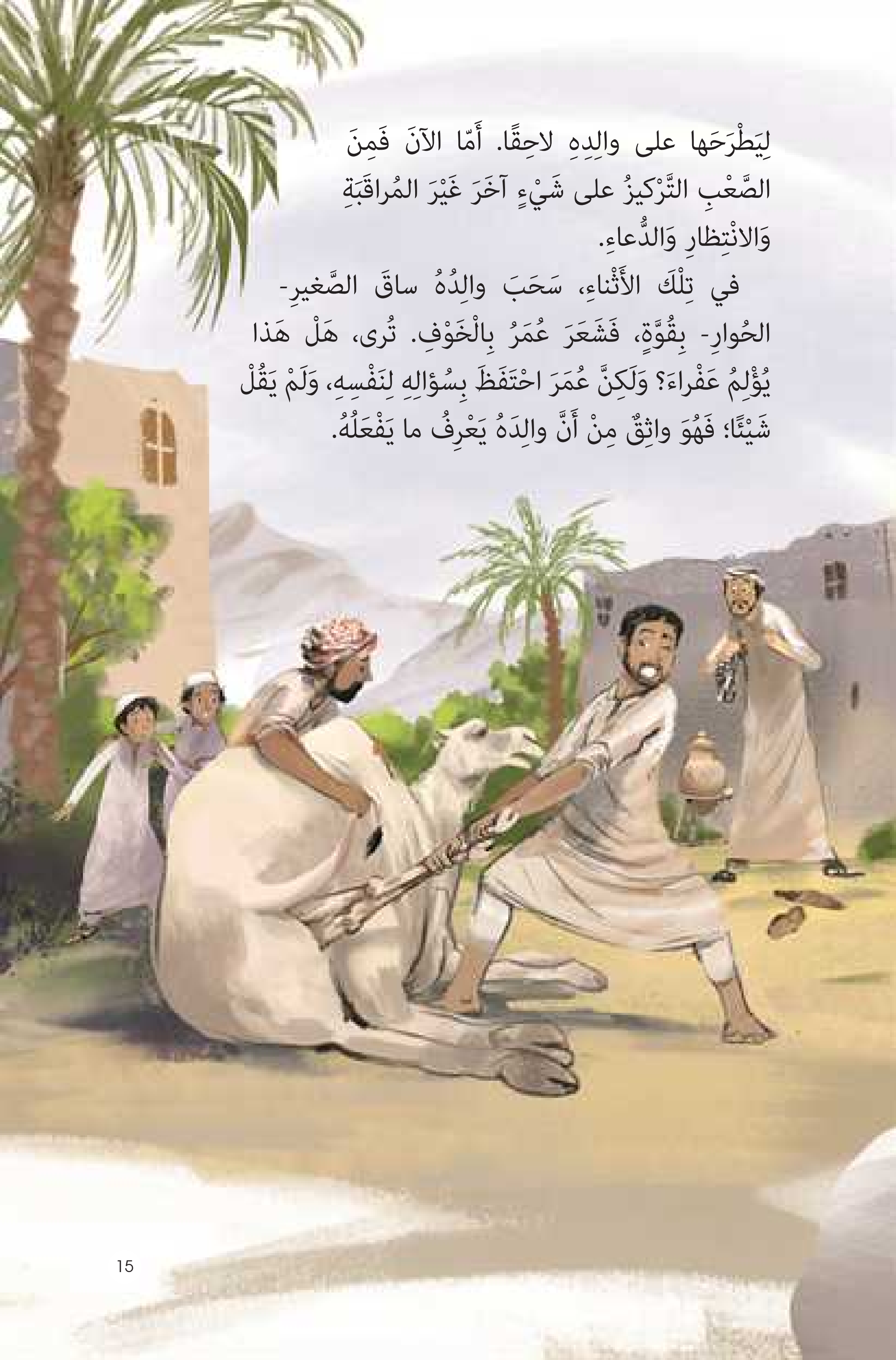
«نَعَمْ، شُكْرًا للّهِ!» فَكَّرَ عُمَرُ. كانَ يَأْمَلُ أَنْ تكونَ الوِلادَةُ سَريعَةً مِنْ أَجْلِ عَفْراءَ. فَقَدْ شَعَرَ بِأَلَمِها وَهِيَ تَئِنُّ وَتَدْفَعُ. وَلَكِنَّ الصَّغيرَ لَمْ يَتَحَرَّكْ.

لِماذا كُلُّ هذا التَّأْخيرِ؟! شَعَرَ عُمَرُ بِالقَلَقِ. هَلْ سَتَكونُ عَفْراءُ وَصَغيرُها بِخَيْرٍ؟! هَلْ تَمَكَّنَ والِدُهُ مِنْ تَغْييرِ وَضْعِيَّةِ الجَنينِ؟ كانَ يَحْتاجُ إلى تَفْسيراتٍ، وَلَكِنَّ والِدَهُ مَشْغولٌ. حاوَلَ حِفْظَ أَسْئِلَتِهِ



لِيَطْرَحَها على والِدِهِ لاحِقًا. أَمّا الآنَ فَمِنَ الصَّعْبِ التَّرْكيزُ على شَيْءٍ آخَرَ غَيْرَ المُراقَبَةِ وَالانْتِظارِ وَالدُّعاءِ.

في تِلْكَ الأَثْناءِ، سَحَبَ والِدُهُ ساقَ الصَّغيرِ- الحُوارِ- بِقُوَّةٍ، فَشَعَرَ عُمَرُ بِالْخَوْفِ. تُرى، هَلْ هَذا يُؤْلِمُ عَفْراءَ؟ وَلَكِنَّ عُمَرَ احْتَفَظَ بِسُؤالِهِ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا؛ فَهُوَ واثِقٌ مِنْ أَنَّ والِدَهُ يَعْرِفُ ما يَفْعَلُهُ.



رَبَّتَ والِدُهُ عَلى عَفْراءَ، وَهَدَّأَها بِصَوْتِهِ العَميقِ، وَشَجَّعَها، فَراحَتْ تَلْتَفِتُ لِتَنْظُرَ إِلَيْهِ بَيْنَ الحينِ والآخَرِ؛ فَهِيَ تَثِقُ بِهِ، وتَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُساعِدُها.

اسْتَمَرَّ والِدُهُ في سَحْبِ ساقَيِ المَوْلودِ الصَّغيرِ. سَحَبَهُما، ثُمَّ تَوَقَّفَ لِإِعْطاءِ عَفْراءَ فُرْصَةً للرّاحَةِ بَيْنَ دَفْعاتِها. ثُمَّ مَرَّةً أُخْرى، تابَعَ السَّحْبَ بَيْنَما كانَ جَمالُ يُرَبِّتُ عَلَيْها. كانَتْ عَفْراءُ تَتَنَفَّسُ وَتَئِنُّ. وَتَدْريجِيًّا، بَدَأَتْ أَجْزاءٌ أَكْثَرُ مِنْ ساقَيِ الحُوارِ الصَّغيرِ وَرَأْسِهِ تَظْهَرُ، وَلَكِنَّها كانَتْ ثابِتَةً لا تَتَحَرَّكُ.

خَفَقَ قَلْبُ عُمَرَ بِسُرْعَةٍ. وَرَغْمَ أَنَّ الوَقْتَ كانَ بَعْدَ الظُّهْرِ، والشَّمْسَ مَحْجوبَةٌ بِصُخورٍ عالِيَةٍ، إِلّا أَنَّ عُمَرَ شَعَرَ بِالحَرارَةِ، وَهَمَسَ لِسالِمٍ: «هَلِ الحُوارُ حَيٌّ؟ هَلْ سَيَتَخَطّى هَذا الصَّغيرُ الخَطَرَ؟»

فَهَزَّ سالِمٌ كَتِفَيْهِ لِلْأَعْلى. وَكانَتْ عَيْناهُ تَعْكِسانِ القَلَقَ نَفْسَهُ الظّاهِرَ في عَيْنَيْ عُمَرَ.

ثُمَّ بَدَأَ عُمَرُ وَسالِمٌ يَتَحَرَّكانِ بَحْثًا عَنْ أَفْضَلِ زاوِيَةٍ لِرُؤْيَةِ ما يَحْدُثُ، وَيَنْظُرانِ إلى وَجْهِ والِدِ عُمَرَ مِنْ حينٍ إلى آخَرَ لِيَسْتَنْتِجا مَدى خُطورَةِ الوَضْعِ.

بَعْدَ قَليلٍ، رَبَّتَ والِدُهُ عَلى رِجْلَيِ المَوْلودِ الصَّغيرِ وَجِسْمِهِ، ثُمَّ مَزَّقَ فُتْحَةً صَغيرَةً في الغِلافِ الزَّلْقِ الّذي يُغَطّي جَسَدَهُ، وَنَفَخَ في أَنْفِهِ.

وَعِنْدَما خَرَجَ جِسْمُ المَوْلودِ حَتّى مُنْتَصَفِهِ، تَوَقَّفَ والِدُهُ عَنِ السَّحْبِ، وَوَقَفَ وَمَسَحَ وَجْهَهُ بِكُمَّيْهِ المَرْفوعَيْنِ. أَمّا عَفْراءُ فَوَضَعَتْ رَأْسَها على الأَرْضِ، وَأَغْمَضَتْ عَيْنَيْها. كانَتْ أَنْفاسُها ثَقيلَةً.

لَمْ يَفْهَمْ عُمَرُ ما يَحْدُثُ. فَقَدْ كانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يُشاهِدُ فيها وِلادَةً حَقيقِيَّةً لِناقَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكونَ الأَمْرُ بِهَذِهِ الجِدِّيَّةِ.

ففي القِصَصِ الَّتي سَمِعَها، كانَ يَعْلَمُ مُسْبَقًا أَنَّ الصَّغيرَ قَدْ خَرَجَ بِسَلامٍ. لَكِنْ، ماذا سَيَحْدُثُ الآنَ؟! هَلْ تَخَلّى والِدُهُ عَنِ الأُمِّ والصَّغيرِ؟ جَعَلَهُ التَّوَتُّرُ يَجِدُ صُعوبَةً في الكَلامِ، وَصارَ تَنَفُّسُهُ ثَقيلًا مِثْلَ تَنَفُّسِ عَفْراءَ.

وَحينَ لاحَظَ عُمَرُ أَنَّ والِدَهُ يَتَعَرَّقُ، ذَهَبَ إِلى الزّيرِ- إناءِ الماءِ الفَخّارِيِّ- القريبِ، وَسَكَبَ بَعْضَ الماءِ في كوبٍ وَأَخَذَهُ إِلَيْهِ، فَشَعَرَ والِدُهُ بِالانْتِعاشِ. ثُمَّ ذَهَبَ عُمَرُ لِيُحْضِرَ المَزيدَ لَهُ ولِسالِمٍ؛ لا سِيَّما وَأَنَّ القَلَقَ جَعَلَ حَلْقَهُ يَجِفُّ.

فَجْأَةً، لاحَظَ عُمَرُ أَنَّ المَوْلودَ الصَّغيرَ، الحُوارَ، يُحَرِّكُ ساقَهُ!

نَعَمْ! لَقَدْ كانَ يَرْكُلُ لِيَخْرُجَ! إذًا، كانَ أَبي يَعْرِفُ أَنَّهُ في أَمانٍ، وَأَرادَ أَنْ يَدَعَ الأُمورَ تَأْخُذُ مَجْراها بِشَكْلٍ طَبيعِيٍّ. نَعَمْ، تَذَكَّرَ عُمَرُ ما قالَهُ لَهُ والِدُهُ في قِصَصٍ سابِقَةٍ.

عِنْدَها، مَسَحَ عُمَرُ بَعْضَ الدُّموعِ عَنْ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِكَتِفِ سالِمٍ، وَهَزَّهُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ وَالسَّعادَةِ، وَبَعْدَها عادَ لِمُتابَعَةِ ما يَحْدُثُ.

ما إِنْ خَرَجَ الحُوارُ حَتّى الْتَفَتَتْ عَفْراءُ بِرَأْسِها، وَفَتَحَتْ عَيْنَيْها لِتَرى جائِزَةَ تَعَبِها. كانَ لا يَزالُ مَلْفوفًا بِطَبَقَةٍ رَقيقَةٍ مِنَ الغِشاءِ الّذي بَدا وَكَأَنَّهُ كيسُ نَوْمٍ صَغيرٌ. أَزالَ والِدُ عُمَرَ أَجْزاءً مِنْ ذَلِكَ الغِشاءِ، وَتَرَكَ ما تَبَقّى لِعَفْراءَ لِتَعْتَنِيَ بِهِ.

بَعْدَ ذَلِكَ، فَكَّ والِدُ عُمَرَ وَجَمالُ ساقَيْ عَفْراءَ الأَمامِيَّتَيْنِ، وَلَكِنَّها بَقِيَتْ مُمَدَّدَةً على جانِبِها لِبَعْضِ الوَقْتِ. لا بُدَّ أَنَّها تَشْعُرُ بِالتَّعَبِ. ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَها عالِيًا وَهِيَ لا تَزالُ عَلى الأَرْضِ، وبَعْدَها نَهَضَتْ وبَدَأَتْ تَدورُ حَوْلَ صَغيرِها.

بَقِيَ صَغيرُها، الحُوارُ، عَلى الأَرْضِ لِبَعْضِ الوَقْتِ أَيْضًا، وَبَدا مُتْعَبًا جِدًّا. غَيْرَ أَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ رَكَلَ مَرَّتَيْنِ وحاوَلَ الوُقوفَ. في البِدايَةِ، كانَتْ رُكَبُهُ غَيْرَ قَوِيَّةٍ، ولَكِنَّهُ سُرْعانَ ما اسْتَطاعَ المَشْيَ نَحْوَ أُمِّهِ، وَبَدَأَ بِالرِّضاعَةِ. كانَ الحُوارُ أُنْثى، وَبَدَتِ الأُمُّ وحُوارُها في غايَةِ السَّعادَةِ.

وَأَخيرًا، أَطْلَقَ عُمَرُ زَفيرًا طَويلًا، وَبَدَأَ يَتَنَفَّسُ بِشَكْلٍ طَبيعِيٍّ.

ظَلَّ الوَلَدانِ هُناكَ لِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِ ساعاتٍ، لَكِنَّ الْأَمْرَ انْتَهى أَخيرًا. فَقَدْ وَلَدَتْ عَفْراءُ حُوارًا صَغيرًا أَبْيَضَ وَجَميلًا. وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عُمَرَ قَدْ سَمِعَ العَديدَ مِنَ القِصَصِ مِنْ والِدِهِ عَنْ وِلادَةِ الحَيواناتِ، لَكِنَّ رُؤْيَتَهُ ذَلِكَ بِعَيْنَيْهِ كانَتْ أَمْرًا مُذْهِلًا! كانَتْ حَقًّا مُعْجِزَةً!

وَدَّعَ عُمَرُ سالِمًا الّذي أَرادَ البَقاءَ قَليلًا. أَمّا عُمَرُ فَكانَ عَلَيْهِ العَوْدَةُ لِأَخْذِ كِتابِهِ؛ فَقَدْ حَلَّ الظَّلامُ. وَفي طَريقِ عَوْدَتِهِ مَعَ أَبيهِ، سَمِعا آذانَ صَلاةِ العِشاءِ، فَذَهَبا مَعًا إلى المَسْجِدِ لِلْوُضوءِ وَالصَّلاةِ. وَبَعْدَ الصَّلاةِ، تَجَمَّعَ العَديدُ مِنَ النّاسِ حَوْلَ والِدِهِ، وَصافَحوهُ وَهَنَّأوهُ عَلى عَمَلِهِ الجَيِّدِ وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ. شَعَرَ عُمَرُ بِالفَخْرِ، وَوَقَفَ بِجانِبِ أَبيهِ مُبْتَسِمًا. وَعِنْدَما صافَحَ النّاسُ والِدَهُ، قَدَّموا لَهُ تَهانِيَ مُخْتَلِفَةً مِثْلَ «بَيَّضَ اللهُ وَجْهَكَ»، و«فَلْيَرْزُقْكَ اللهُ الخَيْرَ الكَثيرَ»... كَما رَبَّتوا عَلى كَتِفِ عُمَرَ، وَمَسَحَ بَعْضُهُمْ عَلى شَعْرِهِ، وَقالَ أَحَدُهُمْ: «يا لَهُ مِنْ صَبِيٍّ شُجاعٍ وَمَحْظوظٍ لِمُشاهَدَتِهِ وِلادَةَ ناقَةٍ نادِرَةٍ!»

كانَ الوَقْتُ قَدْ تَأَخَّرَ بِالفِعْلِ، «هممم... لا أَعْلَمُ إِنْ كانَ بِإِمْكاني دِراسَةُ أَيِّ شَيْءٍ الآنَ...» لِذا قَرَّرَ عُمَرُ أَنْ يَسْتَعيدَ كِتابَهُ وَيَعودَ إِلى بَيْتِهِ لِيَنامَ.

وَصَلَ إِلى المَكانِ الَّذي تَرَكَ فيهِ الكِتابَ، وَرَغْمَ أَنَّ الوَقْتَ كانَ

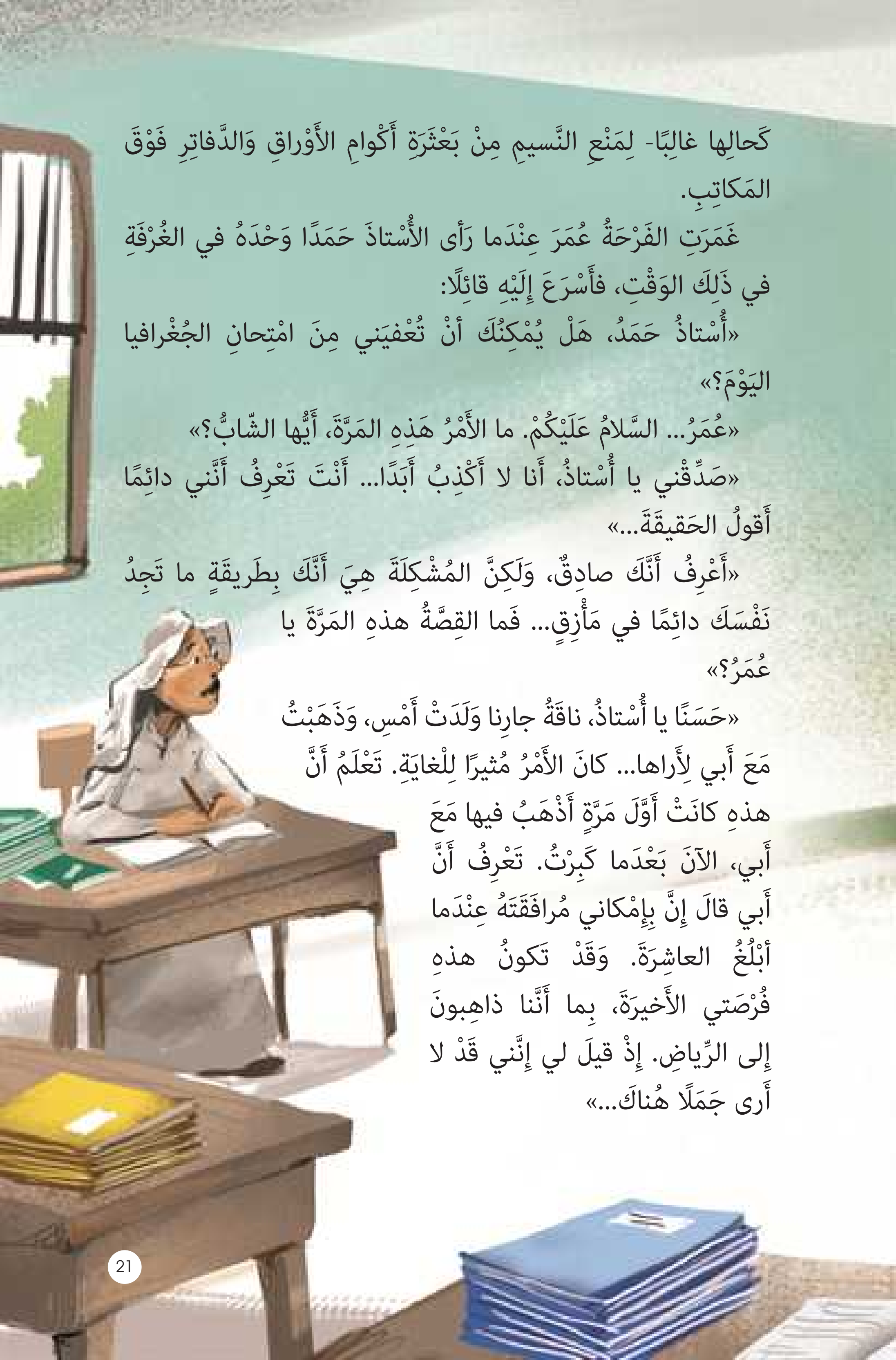
لَيْلًا، إلّا أَنَّ الضَّوْءَ المُنْبَعِثَ مِنْ نافِذَةِ المَطْبَخِ، وَضَوْءَ القَمَرِ شِبْهِ المُكْتَمِلِ، ساعَداهُ عَلى رُؤْيَةِ المَكانِ. كانَتْ شَهْبا جالِسَةً بِجانِبِ الشَّجَرَةِ حَيْثُ تَرَكَها، لَكِنَّ الكِتابَ... لَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُ سِوى آثارِهِ... وَمَوْضِعِ الدَّبابيسِ فَقَطْ! لَقَدْ أَكَلَتْ شَهْبا كِتابَهُ!

«أَنْتِ في وَرْطَةٍ!» صَرَخَ عُمَرُ وَهُوَ يُلَوِّحُ بِقَبْضَتِهِ نَحْوَ شَهْبا، وَتابَعَ: «أَتَمَنّى لَوْ أَسْتَطيعُ إِرْسالَكِ لِلْإِجابَةِ عَنْ أَسْئِلَةِ الامْتِحانِ بَدَلًا مِنّي! آمُلُ أنْ يَتَفَهَّمَ الأُسْتاذُ حَمَدٌ عِنْدَما أَشْرَحُ لَهُ.»



مُواجَهَةُ الأُسْتاذِ حَمَدٍ

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، ذَهَبَ عُمَرُ إلى المَدْرَسَةِ مُبْكِرًا، وَتَوَجَّهَ مُباشَرَةً إلى مَكْتَبِ الأُسْتاذِ حَمَدٍ في غُرْفَةِ المُعَلِّمينَ. كانَتْ هُناكَ سِتَّةُ مَكاتِبَ في الغُرْفَةِ، وَلَوْحَةُ إِعْلاناتٍ مَليئَةٌ بِالإِشْعاراتِ، وَجَدْوَلٌ كَبيرٌ يَحْتَلُّ حَوالَي ثُلُثِ المِساحَةِ. أَمّا النّافِذَةُ الكَبيرَةُ فَكانَتْ مُغْلَقَةً-



كَحالِها غالِبًا- لِمَنْعِ النَّسيمِ مِنْ بَعْثَرَةِ أَكْوامِ الأَوْراقِ وَالدَّفاتِرِ فَوْقَ المَكاتِبِ.

غَمَرَتِ الفَرْحَةُ عُمَرَ عِنْدَما رَأى الأُسْتاذَ حَمَدًا وَحْدَهُ في الغُرْفَةِ في ذَلِكَ الوَقْتِ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ قائِلًا:

«أُسْتاذُ حَمَدُ، هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُعْفِيَني مِنَ امْتِحانِ الجُغْرافيا اليَوْمَ؟»

«عُمَرُ... السَّلامُ عَلَيْكُمْ. ما الأَمْرُ هَذِهِ المَرَّةَ، أَيُّها الشّابُّ؟»

«صَدِّقْني يا أُسْتاذُ، أَنا لا أَكْذِبُ أَبَدًا... أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّني دائِمًا أَقولُ الحَقيقَةَ...»

«أَعْرِفُ أَنَّكَ صادِقٌ، وَلَكِنَّ المُشْكِلَةَ هِيَ أَنَّكَ بِطَريقَةٍ ما تَجِدُ نَفْسَكَ دائِمًا في مَأْزِقٍ... فَما القِصَّةُ هذهِ المَرَّةَ يا عُمَرُ؟»

«حَسَنًا يا أُسْتاذُ، ناقَةُ جارِنا وَلَدَتْ أَمْسِ، وَذَهَبْتُ مَعَ أَبي لِأَراها... كانَ الأَمْرُ مُثيرًا لِلْغايَةِ. تَعْلَمُ أَنَّ هذهِ كانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَذْهَبُ فيها مَعَ أَبي، الآنَ بَعْدَما كَبِرْتُ. تَعْرِفُ أَنَّ أَبي قالَ إِنَّ بِإِمْكاني مُرافَقَتَهُ عِنْدَما أَبْلُغُ العاشِرَةَ. وَقَدْ تَكونُ هذهِ فُرْصَتي الأَخيرَةَ، بِما أَنَّنا ذاهِبونَ إِلى الرِّياضِ. إِذْ قيلَ لي إِنَّني قَدْ لا أَرى جَمَلًا هُناكَ...»

«ادْخُلْ في المَوْضوعِ يا عُمَرُ... النّاقَةُ لَمْ تَقْضِ اللَّيْلَةَ كامِلَةً في الوِلادَةِ...»

«أوه، لا يا أُسْتاذُ. حَسَنًا، في الواقِعِ، اسْتَغْرَقَتْ تَقْريبًا كُلَّ اللَّيْلِ؛ لِأَنَّها واجَهَتْ بَعْضَ الصُّعوباتِ، ولِهذا اسْتَدْعَوا أَبي... كُنْتُ أَدْرُسُ عِنْدَما جاءَ سالِمٌ، أَتَعْرِفُ سالِمًا مِنَ الصَّفِّ الخامِسِ؟ إِنَّهُ جارُنا أَيْضًا. جاءَ لِيُنادِيَني لِأَنَّني طَلَبْتُ إِلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَدْ رَأَى أَبي يَذْهَبُ مُسْرِعًا إلى المَزْرَعَةِ... وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ وَقْتٌ، لِذا تَرَكْتُ كُتُبي وَذَهَبْتُ لِأَلْحَقَ بِهِ...»

«إِذًا... ادْخُلْ في المَوْضوعِ...»

«حَسَنًا، المُشْكِلَةُ هِيَ أَنَّني كُنْتُ أَدْرُسُ بِجانِبِ شَهْبا، تَعْرِفُها، مِعْزَتي، وَأَعْتَقِدُ... حَسَنًا... عِنْدَما عُدْتُ كانَتْ قَدِ انْتَهَتْ مِنْ أَكْلِ كِتابِ الدِّراسَةِ... لا أَدْري ما الّذي أَصابَها... لِذا، كَما تَرى يا أُسْتاذُ، لَمْ أَسْتَطِعِ الدِّراسَةَ، وَكانَ الوَقْتُ مُتَأَخِّرًا جِدًّا... إِذْ لَمْ نَعُدْ إلّا بَعْدَ صَلاةِ العِشاءِ!»

وَرَفَعَ يَدَيْهِ لِيُظْهِرَ بَقايا الكِتابِ المَأْكولِ، مُتَضَمِّنًا الدَّبابيسَ وَالكِتابَةَ الّتي أَصْبَحَتْ مُلَطَّخَةً.

«إِذًا، لِماذا لا تَدَعُ شَهْبا تَأْتي لِلْإِجابَةِ عَنْ أَسْئِلَةِ الامْتِحانِ بَدَلًا مِنْكَ؟»

«هاه؟! أوه، لا يا أُسْتاذُ، إِنَّها مُجَرَّدُ مِعْزَةٍ!»

«لا بَأْسَ... أَتَعْلَمُ يا عُمَرُ؟ سَأَفْتَقِدُكَ وَأَعْذارَكَ عِنْدَما تُغادِرُ.»

«لَكِنَّكَ تُصَدِّقُني يا أُسْتاذُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

«ما رَأْيُكَ في أَنْ تَأْتِيَ غَدًا لِإِعادَةِ الاخْتِبارِ؟»

«أَتَمَنّى ذَلِكَ. تَعْلَمُ أَنَّني حَقًّا أَرْغَبُ في ذَلِكَ... وَلَكِنَّ المُشْكِلَةَ هِيَ أَنَّني وَعَدْتُ أَبي بِالذَّهابِ مَعَهُ إلى الرِّياضِ لِأَنَّهُ يَحْتاجُ إلى مُساعَدَتي في البَحْثِ عَنْ مَنْزِلٍ.»

«أَعْلَمُ أَنَّ هذا لَنْ يَنْتَهِيَ أَبَدًا... فَقَطِ اذْهَبْ... أَعْلَمُ ما كُنْتَ تَفْعَلُهُ طَوالَ العامِ... فَقَطِ اذْهَبْ، وَلْتَكُنْ هَذِهِ هَدِيَّتي الوَداعِيَّةَ.»

«أوه، شُكْرًا لَكَ يا أُسْتاذُ، شُكْرًا. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ سَتَتَفَهَّمُني.»



رِحْلَةُ البَحْثِ عَنْ مَنْزِلٍ

بَعْدَ صَلاةِ الفَجْرِ، وَقَبْلَ شُروقِ الشَّمْسِ، اسْتَعَدَّ عُمَرُ وَأَبوهُ لِلرِّحْلَةِ إلى المَدينَةِ الكَبيرَةِ. لَبِسا ثِيابًا نَظيفَةً، وَوَضَعا الغُتْرَتَيْنِ عَلى رَأْسَيْهِما، وَوَضَعَ الأَبُ العِقالَ الأَسْوَدَ



عَلى رَأْسِه. ثُمَّ جَلَسَ عُمَرُ بِجِوارِ أَبيهِ عَلى المَقْعَدِ الأَمامِيِّ، وَمَعَهُ تَمْرٌ وَزُجاجَتا ماءٍ اسْتِعْدادًا للطَّريقِ الطَّويلِ إلى الرِّياضِ. كانَتْ شاحِنَتُهُمُ البَيْضاءُ مُمَيَّزَةً في القَرْيَةِ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ هُناكَ سَيّاراتٌ كَثيرَةٌ مِثْلُها.

اسْتَغْرَقَتِ الرِّحْلَةُ حَوالَي 16 ساعَةً، وَرُبَّما كانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكونَ الوَقْتُ أَقَلَّ لَوْ لَمْ تَتَجاوَزْهُما السَّيّاراتُ الأُخْرى بِسُرْعَةٍ عَلى الطَّريقِ! تَوَقَّفا بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ لِلاسْتِراحَةِ وَتَناوُلِ الطَّعامِ، وَأَخْذِ قَيْلولَةٍ قَصيرَةٍ في مَقْهًى بِالقُرْبِ مِنْ مَحَطَّةِ وَقودٍ، كَما تَوَقَّفا لِأَداءِ صَلاةِ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ جَمْعًا وقَصْرًا.

وَعِنْدَما وَصَلا إِلى الرِّياضِ، كانَتِ السّاعَةُ قَدْ قارَبَتِ التّاسِعَةَ مَساءً. نَظَرَ عُمَرُ مِنْ نافِذَةِ السَّيّارَةِ بِذُهولٍ؛ فَالمَدينَةُ لَمْ تَكُنْ كَبيرَةً فَقَطْ، بَلْ بَدَتْ ضَخْمَةً أَيْضًا! وَالأَنْوارُ تَمْلَأُ الشَّوارِعَ، وَالسَّيّاراتُ تَتَحَرَّكُ في كُلِّ مَكانٍ؛ حتّى في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيْلِ! كَما أَنَّ المَحَلّاتِ مَفْتوحَةٌ، وَالنّاسَ يَتَنَقّلونَ بِسَيّاراتِهِمْ بَدَلًا مِنَ المَشْيِ. وَقَدِ اضْطُرَّ عُمَرُ إِلى رَفْعِ رَأْسِهِ لِرُؤْيَةِ قِمَمِ المَباني العالِيَةِ. في ديسَةَ، بَدَلًا مِنَ المَباني كانَتْ هُناكَ جِبالٌ وَصُخورٌ. أَمّا هُنا فَالخُطوطُ مُسْتَقيمَةٌ، وَالأَشْكالُ الهَنْدَسِيَّةُ في كُلِّ مَكانٍ؛ الشَّوارِعُ مَرْصوفَةٌ وَمَرْسومَةٌ بِخُطوطٍ أُفُقِيَّةٍ، فيما المَباني بِخُطوطٍ رَأْسِيَّةٍ وَدائِرِيَّةٍ. بَدَتِ المَدينَةُ وَكَأَنَّها تُقَدِّمُ دَرْسًا في الهَنْدَسَةِ! لَوْ رَآهُ مُعَلِّمُهُ لَافْتَخَرَ بِهِ لِقُدْرَتِهِ عَلى تَمْييزِ الأَشْكالِ الهَنْدَسِيَّةِ، حَتّى لَوْ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقديمَ الاخْتِبارِ.

اِنْتابَ عُمَرَ شُعورٌ غَريبٌ، لا يَسْتَطيعُ وَصْفَهُ. إِذْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَكانٌ لِلَّعِبِ، وَلا أَطْفالٌ يَرْكُضونَ، وَلا حَيَواناتٌ تَسْتَريحُ تَحْتَ

الأَشْجارِ كَما في قَرْيَتِهِ. فَظَلَّ صامِتًا وَهُوَ يُحَدِّقُ بِفَمِهِ المَفْتوحِ إلى المَدينَةِ. لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِمّا إذا كانَ أَبوهُ قَدْ تَحَدَّثَ إِلَيْهِ أَمْ لا؛ لِأَنَّهُ بِبَساطَةٍ لَمْ يَسْمَعْهُ.

فَجْأَةً، لاحَظَ بَعْضَ الأَطْفالِ في سَيّارَةٍ مُجاوِرَةٍ يَنْظُرونَ إِلَيْهِ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِمّا إذا كانوا يَنْظُرونَ إِلَيْهِ حَقًّا أَمْ إلى إشاراتِ المُرورِ الكَثيرَةِ الّتي لَمْ يَرَ مِثْلَها وَلا حتّى في تَبوك، أَقْرَبِ مَدينَةٍ إلى ديسَةَ.

تَوَقَّفَ الأَبُ عِنْدَ مَكْتَبٍ ودَخَلا مَعًا. ثُمَّ بَدَأَ الأَبُ يَطْرَحُ أَسْئِلَةً على الرَّجُلِ هُناكَ، بَيْنَما اختارَ عُمَرُ الجُلوسَ بِجانِبِ البابِ الزُّجاجِيِّ لِيُواصِلَ النَّظَرَ إلى الخارِجِ. حاوَلَ عَدَّ طَوابِقِ المَبْنى المُقابِلِ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَما وَصَلَ إلى مُنْتَصَفِها اخْتَلَطَ عَلَيْهِ الأَمْرُ، وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْ وَصَلَ في عَدِّهِ إلى النّافِذَةِ العِشْرينَ أَمْ لا. بَعْدَ قَليلٍ، وَقَفَ الأَبُ، وصافَحَ الرَّجُلَ، وَوافَقَ على العَوْدَةِ في اليَوْمِ التّالي لِرُؤْيَةِ بَعْضِ الأَماكِنِ المُحْتَمَلَةِ للسَّكَنِ.

وَفي اليَوْمِ التّالي، وَبَعْدَ زِيارَةِ سِتِّ شُقَقٍ، شَعَرَ عُمَرُ بِالإِحْباطِ. لَمْ تَكُنِ المَدينَةُ بِمَبانيها العالِيَةِ تُناسِبُهُ. وَكانَ كُلَّما دَخَلَ شُقَّةً يَجْري إلى الشُّرْفَةِ بَحْثًا عَنْ نَسْمَةٍ مِنَ الهَواءِ، وَلَكِنَّ مُعْظَمَ الشُّقَقِ لَمْ تَكُنْ فيها شُرْفاتٌ، بَلْ نَوافِذُ فَقَطْ. كانَ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ مَأْلوفٍ؛ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُشْعِرَهُ بِأَنَّهُ في مَنْزِلِهِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ سِوى القَليلِ مِنَ الأَشْجارِ الّتي يُمْكِنُ رُؤْيَتُها مِنْ بَعيدٍ. لَمْ تَكُنْ هُناكَ رائِحَةٌ أَيْضًا! حَسَنًا، رُبَّما بَعْضُ الغُبارِ في الهَواءِ. افْتَقَدَ رائِحَةَ الشُّجَيْراتِ وَالعُشْبِ الطَّويلِ في الحُقولِ، وَأَشْجارَ النَّخيلِ وَشَجَرَ الدَّوْمِ، وكُلَّ الرَّوائِحِ الّتي كانَتْ تَنْبَعِثُ مِنَ

الحَيَواناتِ وَالتِّبْنِ عِنْدَما كانَ يَجْلِسُ خارِجَ المَنْزِلِ أَوْ بِجِوارِ نافِذَةِ المَطْبَخِ في ديسَةَ.

أبي، تَعِبْتُ مِنْ صُعودِ الدَّرَجِ وَنُزولِهِ. لا يُمْكِنُنا العَيْشُ في مَكانٍ كَهذا. لا أَظُنُّ أَنَّ أُمّي سَتُحِبُّ رُكوبَ المِصْعَدِ الضَّيِّقِ. وَلا توجَدُ أَشْجارٌ، وَلا نَخْلٌ، ولا أَيُّ شَيْءٍ هُنا. أَيْنَ سَأَضَعُ شَهْبا!؟ تَذَكَّرْ أَنَّكَ وَعَدْتَني بِأَنَّنا سَنُحْضِرُها مَعَنا.»

فَرَدَّ الأَبُ بِهُدوءٍ: «لَمْ أَعِدْكَ حَقًّا، بَلْ فَقَطْ قُلْتُ إِنَّني سَأُحاوِلُ.»

«أَتَدْري ما الّذي أَتَمَنّاهُ يا أَبي؟ أَتَمَنّى أَنْ نَجِدَ بَيْتًا أَسْتَطيعُ فيهِ أَنْ أُحْضِرَ بَعْضَ حَيَواناتي الأَليفَةِ، وَرُبَّما بَقَرَةً لِأُمّي، وَبَعْضَ الدَّجاجِ... وَشَهْبا بِالتَّأْكيدِ. لا أَسْتَطيعُ تَرْكَها، حَقًّا لا أَسْتَطيعُ. وَتَذَكَّرْ أَنَّكَ وَعَدْتَنا بِأَنْ نَحْصُلَ عَلى بَعْضِ الأَرانِبِ...»

فَتَبادَلَ الأَبُ والسِّمْسارُ نَظْراتٍ قَصيرَةً. لَمْ يَقُلِ السِّمْسارُ شَيْئًا. عِنْدَها، شَكَرَ الأَبُ السِّمْسارَ قائِلًا لَهُ إِنَّهُ سَيُفَكِّرُ في الأَمْرِ، ثُمَّ صافَحَهُ وغادَرا المَكانَ.

وَبَيْنَما كانا يَمْشِيانِ نَحْوَ السَّيّارَةِ، قالَ الأَبُ مُفَسِّرًا: «يَبْدو أَنَّني لا أَسْتَطيعُ تَحَمُّلَ تَكْلِفَةِ البَيْتِ الّذي تَتَمَنّاهُ يا عُمَرُ. فَلْنَذْهَبْ إِلى صَديقي القَديمِ أبي عَلِيٍّ، فَرُبَّما يُمْكِنُهُ مُساعَدَتُنا. أَعْتَقِدُ أَنَّني ما زِلْتُ أَذْكُرُ مَكانَ مَنْزِلِهِ، وَأَتَوَقَّعُ أَنَّهُ عَلى بُعْدِ حَوالَي نِصْفِ ساعَةٍ مِنْ هُنا.»

رَكِبَ عُمَرُ بِجِوارِ والِدِهِ في الشّاحِنَةِ الصَّغيرَةِ، وَراحَ النّاسُ يَنْظُرونَ إِلَيْهِما وَكَأَنَّهُما جاءا مِنَ الفَضاءِ الخارِجِيِّ. وبَدَتِ الشّاحِنَةُ الصَّغيرَةُ غَريبَةً وَهِيَ تَسيرُ بِجِوارِ سَيّاراتِ كامري ومرسيدس وبي أم دبليو

والسَّيّاراتِ الفاخِرَةِ الأُخْرى، ناهيكُمْ عَنِ الضَّجيجِ الّذي كانَ يَصْدُرُ مِنْها، وَالّذي لَمْ يُلاحِظْهُ عُمَرُ مِنْ قَبْل؛ مِمّا جَعَلَ النّاسَ يَلْتَفِتونَ لِرُؤْيَتِهِما. لَكِنْ في ديسَةَ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يُزْعِجُهُ... حَسَنًا، رُبَّما قَليلًا. تَصاعَدَتْ مَشاعِرُ القَلَقِ وَعَدَمِ الرّاحَةِ لَدى عُمَرَ.

تَأَكَّدَ لِعُمَرَ أَنَّ الرِّياضَ لَيْسَتِ المَكانَ المُناسِبَ لَهُ؛ فَهُوَ لَمْ يَرَ أَيَّ أَمَلٍ في إيجادِ حَلٍّ مُريحٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْوي الاسْتِسْلامَ. وكانَ يَعْرِفُ أَنَّ لا مَجالَ لِتَغْييرِ رَأْيِ والِدِهِ بِشَأْنِ الانْتِقالِ. لِذا، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، بَدَأَ عُمَرُ يَدْعو لِحُدوثِ مُعْجِزَةٍ.

كانَ العُثورُ عَلى بَيْتٍ مُناسِبٍ أَوَّلَ وَأَهَمَّ مُشْكِلَةٍ يَجِبُ مُعالَجَتُها! ظَلَّ عُمَرُ وَوالِدُهُ صامِتَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عادَةِ عُمَرَ أَنْ يَصْمُتَ، وَلَكِنْ مُنْذُ وُصولِهِما إلى الرِّياضِ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ الكَثيرُ لِلْحَديثِ عَنْهُ.

كُلُّ ما كانَ يَراهُ هُوَ مَبانٍ طَويلَةٌ وَمَحَلّاتٌ تِجارِيَّةٌ. لَمْ يَجِدْ شَيْئًا يَبْدو وَكَأَنَّهُ مَكانٌ يُمْكِنُهُ أَنْ يَعيشَ فيهِ وَيَلْعَبَ مَعَ أَصْدِقائِهِ.

وَأَخيرًا، انْعَطَفَ الأَبُ إِلى شارِعٍ فيهِ بُيوتٌ جَميلَةٌ وَبُيوتٌ كَبيرَةٌ، وَجَميعُها مُحاطَةٌ بِأَسْوارٍ تَحْمي الحَدائِقَ وَالأَشْجارَ. بَعْضُ المَنازِلِ كانَ ضَخْمًا؛ رُبَّما هِيَ ما يُسَمّونَها القُصورَ. فَالمَنازِلُ كَبيرَةٌ وفاخِرَةٌ، ولَكِنَّ ما أَسْعَدَ عُمَرَ هُوَ الحَدائِقُ الكَبيرَةُ المُحيطَةُ بِكُلِّ بَيْتٍ.

تَباطَأَ الأَبُ مُحاوِلًا تَذَكُّرَ أَيِّ بَيْتٍ يَخُصُّ صَديقَهُ، مِمّا أَعْطى «عُمَرَ» وَقْتًا لِتَأَمُّلِ الشُّجَيْراتِ وَالنَّخيلِ، والتَّمَتُّعِ بِعَبيرِ الأَزْهارِ المَزْروعَةِ في الحَدائِقِ، والَّتي يَفوحُ أَريجُها في الشّارِعِ.

لَمْ تَكُنْ لَدى عُمَرَ تَوَقُّعاتٌ؛ لِذا اكْتَفى بِالنَّظَرِ إِلى والِدِهِ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.

أَوْقَفَ الأَبُ الشّاحِنَةَ بِجانِبِ أَحَدِ البُيوتِ، وَتَوَجَّهَ إلى بابٍ خَلْفِيٍّ. بَدا البابُ صَغيرًا مُقارَنَةً بِالأَبْوابِ الأَمامِيَّةِ الأُخْرى الّتي يُمْكِنُ أَنْ تَتَّسِعَ لِفيلٍ، أَوِ اثْنَيْنِ مِنَ الجِمالِ. وَمَعَ اقْتِرابِهِما، بَدا البابُ أَصْغَرَ مِمّا هُوَ عَلَيْهِ فِعْلِيًّا مُقارَنَةً بِالجِدارِ الضَّخْمِ الّذي يُحيطُ بِالمَنْزِلِ. وَبِمُجَرَّدِ أَنْ طَرَقا البابَ، أَجابَ شَخْصٌ ما وَكَأَنَّهُ كانَ يَتَوَقَّعُ وُصولَهُما، أَوْ رُبَّما أَعْلَنَ صَوْتُ الشّاحِنَةِ عَنْ وُصولِهِما حَتّى قَبْلَ أَنْ يَرُنّا الجَرَسَ.

أَوَّلُ ما لاحَظَهُ عُمَرُ- حَتّى قَبْلَ أَنْ يَدْخُلا- هُوَ الحَديقَةُ الكَبيرَةُ على الجانِبِ. ثُمَّ لَمْ يَكُنْ بِالإِمْكانِ عَدَمُ الانْتِباهِ إِلى رائِحَةِ الحَيَواناتِ. كانَتِ السّاعَةُ هِيَ الثّانِيَةَ تَقْريبًا، وَهُوَ وَقْتُ الغَداءِ في الرِّياضِ. فَتَسَلَّلَتْ إِلَيْهِما رائِحَةُ الطَّعامِ وَالتَّوابِلِ؛ وكانَتْ تُشْبِهُ إِلى حَدٍّ كَبيرٍ رائِحَةَ طَبْخِ والِدَتِهِ.

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ يا أَبا عَلِيٍّ...»

«أوه... يا صَديقِيَ العَزيزَ... وَعَلَيْكُمُ السَّلامُ، ما الّذي جاءَ بِكَ إلى الرِّياضِ؟ وَمَنْ هَذا الَّذي مَعَنا هُنا؟ لا بُدَّ أَنَّهُ... لَحْظَةً، دَعْني أَتَذَكَّرْ... عُمَرُ...!»

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ، عَمّي أَبا عَلِيٍّ... نَعَمْ، أَنا عُمَرُ. أَما زِلْتَ تَتَذَكَّرُني؟!»

«عَلِيٌّ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنِ الحَديثِ عَنْكَ... فَهُوَ دائِمًا يُزْعِجُنا وَيَقولُ إِنَّهُ يُريدُ زِيارَتَكُمْ.»

فَرَفَعَ أَبو عُمَرَ إِصْبَعَ السَّبّابَةِ وَهُوَ يَقولُ: «أَتَذَكَّرُ عَلِيًّا... كانَ يَذْهَبُ مَعَ عُمَرَ لِجَلْبِ البَيْضِ الطّازَجِ لِلْإِفْطارِ عِنْدَما زُرْتُمونا في تَبوك.»

نَعَمْ، قالَ «تَبوك» لِأَنَّهُ مِنَ الأَسْهَلِ لِلنّاسِ أَنْ يُشيروا إلى ديسَةَ بِتَبوك؛ المَدينَةِ الكُبْرى. فَقِلَّةٌ مِنَ النّاسِ يَعْرِفونَ اسْمَ ديسَةَ.

«إِذًا، ما الَّذي جاءَ بِكَ إلى هُنا؟ أَذاهِبٌ لِأَداءِ عُمْرَةٍ؟»

«لا. في الواقِعِ، حَصَلْتُ على وَظيفَةٍ هُنا. فالشَّيْخُ صالِحٌ اسْتَأْجَرَني لِرِعايَةِ جِمالِهِ، لذا جِئْتُ لِلْبَحْثِ عَنْ بَيْتٍ.»

«أَجَلْ، أَعْلَمُ أَنَّهُ كانَ يَبْحَثُ عَنْ شَخْصٍ جَيِّدٍ. إِنَّهُ مَحْظوظٌ بِالعُثورِ عَلَيْكَ. لَكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْتَقِدُ أَنَّكَ سَتُفَكِّرُ في الانْتِقالِ إلى هُنا. فَأَنْتَ لَمْ تَكُنْ تُحِبُّ المُدُنَ الكَبيرَةَ.

عَلِيٌّ... عَلِيٌّ... يا عَلِيٌّ... تَعالَ إلى هُنا... صَديقُكَ عُمَرُ هُنا مَعَ والِدِهِ. أَحْضِرِ القَهْوَةَ والتَّمْرَ لِضَيْفَيْنا...»

ثُمَّ دَعاهُما أَبو عَلِيٍّ إلى غُرْفَةٍ بِها فَرْشاتٌ أَرْضِيَّةٌ وَمَسانِدُ. وَبِمُجَرَّدِ جُلوسِهِمْ، لَمْ يُضَيِّعوا الوَقْتَ في مُناقَشَةِ مَوْضوعِ البَحْثِ عَنِ المَنْزِلِ.

جَلَسَ عُمَرُ بِجِوارِ والِدِهِ، وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى دَخَلَ عَلِيٌّ حامِلًا صينِيَّةً عَلَيْها دَلَّةُ القَهْوَةِ وَالفَناجينُ وَالتَّمْرُ، فَساعَدَهُ عُمَرُ، وَأَخَذَ الصّينِيَّةَ مِنْ يَدَيْهِ. ثُمَّ الْتَقَطَ عَلِيٌّ الدَّلَّةَ بِيَدِهِ اليُسْرى، وَثَلاثَةَ فَناجينَ بِيَدِهِ اليُمْنى، فيما وَضَعَ عُمَرُ الصّينِيَّةَ عَلى الأَرْضِ أَمامَ والِدِهِ وَوالِدِ عَلِيٍّ.

بَدَأَ عَلِيٌّ بِصَبِّ القَهْوَةِ لِوالِدِ عُمَرَ، ثُمَّ سَلَّمَهُ الفِنْجانَ بِيَدِهِ اليُمْنى، وَبَعْدَ ذَلِكَ لِوالِدِهِ، وَأَخيرًا لِعُمَرَ. ثُمَّ وَقَفَ مُمْسِكًا بِالدَّلَّةِ، جاهِزًا لِصَبِّ القَهْوَةِ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ وَالثّالِثَةِ وَهَكَذا... كانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكونَ مُنْتَبِهًا لِيُعيدَ مَلْءَ الفَناجينِ مِنْ دونِ انْتِظارِ الطَّلَبِ، حَتّى يَشْعُرَ الجَميعُ بِالرِّضا. وَعِنْدَما أَنْهَوا شُرْبَ القَهْوَةِ، هَزّوا الفَناجينَ يَمينًا وَيَسارًا؛ إيذانًا بِأَنَّهُمُ اكْتَفَوا.

انْتَظَرَ عُمَرُ رَيْثَما يُنْهي عَلِيٌّ ما يَقومُ بِه وَيَجْلِسُ، وَفي تِلْكَ الأَثْناءِ



كانَ يَسْتَمِعُ بِانْتِباهٍ إلى النِّقاشِ بَيْنَ والِدِهِ وَوالِدِ عَلِيٍّ.

قالَ والِدُ عَلِيٍّ: «أَتَقولُ إِنَّكَ تَبْحَثُ عَنْ بَيْتٍ؟ عَنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ البُيوتِ؟ هَلْ لَدَيْكَ نُقودٌ كافِيَةٌ لِشِراءِ واحِدٍ؟ أَمْ أَنَّكَ سَتَسْتَأْجِرُ؟»

فَأَجابَ الأَبُ: «لَدَيَّ بَعْضُ النُّقودِ. ذَهَبْنا أَنا وَعُمَرُ وَرَأَيْنا العَديدَ مِنَ الشُّقَقِ، إِلّا أَنَّها كانَتْ صَغيرَةً وَكَئيبَةً.»

وَأَضافَ عُمَرُ بِصَوْتٍ هادِئٍ: «وَلا يوجَدُ مَكانٌ لِحَيَواناتِنا.»



مَرَّتْ دَقائِقُ مِنَ الصَّمْتِ، وَهُمْ غارِقونَ في التَّفْكيرِ. وَفَجْأَةً، اسْتَقامَ أَبو عَلِيٍّ في جِلْسَتِهِ، وَنَظَرَ مِنَ النّافِذَةِ الخَلْفِيَّةِ.

فَقالَ لَهُ والِدُ عُمَرَ: «هاتِ ما عِنْدَكَ. أَرى في عَيْنَيْكَ نَظْرَةً مُثيرَةً لِلاهْتِمامِ.»

عِنْدَها قالَ أَبو عَلِيٍّ: «لَحْظَةً، لَحْظَةً... أَظُنُّ أَنَّني قَدْ... آهٍ، لا، لا، رُبَّما لَيْسَتْ فِكْرَةً جَيِّدَةً.»

«رُبَّما ماذا...؟»

«حَسَنًا، البَيْتُ قَريبٌ جِدًّا مِنْ هُنا؛ مِمّا يَعْني أَنَّكَ سَتَكونُ بِالقُرْبِ مِنْ مَزْرَعَةِ الشَّيْخِ صالِحٍ حَيْثُ مَكانُ عَمَلِكَ. لَكِنَّني لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِمّا إِذا كانَتِ الفِكْرَةُ جَيِّدَةً.»

«ما الأَمْرُ؟ أَخْبِرْني وَدَعْني أُقَرِّرْ.»

«حَسَنًا، هُناكَ بَيْتٌ خَلْفَنا مُباشَرَةً، وَيَفْصِلُهُ عَنْ حَديقَتِنا الخَلْفِيَّةِ جِدارٌ واحِدٌ.» وَأَشارَ إِلى جِدارٍ مُزَخْرَفٍ بِأَشْكالٍ حَديدِيَّةٍ مُتَعَرِّجَةٍ في الأَعْلى.

فَسَأَلَ عُمَرُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى الزَّخْرَفَةِ الحَديدِيّةِ مُتَعَجِّبًا: «هَلْ هُوَ قَصْرٌ؟»

عِنْدَها، ضَحِكَ أبو عَلِيٍّ وَقالَ: «إِنَّهُ «فيلّا» وَلَيْسَ قَصْرًا... «فيلّا» كَبيرَةٌ.»

فَأَجابَ الأَبُ مُتَحَسِّرًا: «بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ حَجْمِها، لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَحَمَّلَ تَكاليفَ أَيِّ شَيْءٍ في هَذا الحَيِّ. لَوْ كانَ بِإِمْكاني، لَما انْتَقَلْتُ إلى الرِّياضِ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الوَظيفَةِ.»

غَيْرَ أَنَّ أَبا عَلِيٍّ أَكْمَلَ حَديثَهُ بِنَبْرَةٍ جادَّةٍ: «لَيْسَ هذا هُوَ السَّبَبَ في قَوْلي لا، بَلْ هُناكَ إِشاعَةٌ بِأَنَّ البَيْتَ مَسْكونٌ. فالمالِكُ- الدُّكْتورُ أَحْمَدُ- مُحامٍ، وَكانَ يَنْوي السَّكَنَ فيهِ مَعَ أُسْرَتِهِ، وَقَدْ عَمِلَ بِجِدٍّ لِيَجْعَلَهُ مِثالِيًّا. في الواقِعِ، اسْتَغْرَقَ الأَمْرُ وَقْتًا طَويلًا. وَلَكِنْ بَعْدَ انْتِقالِهِمْ، بَدَأوا يَسْمَعونَ أَصْواتًا غَريبَةً. وَخِلالَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ فَقَطْ، أَصَرَّتْ عائِلَتُهُ عَلى مُغادَرَةِ البَيْتِ، وَانْتَشَرَ الخَبَرُ. والآنَ، لا أَحَدَ يُريدُ البَيْتَ. حاوَلَ العَديدُ مِنْ وُكَلاءِ العَقاراتِ بَيْعَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبَعْ، لِذا قَرَّرَ المالِكُ بَيْعَهُ بِنَفْسِهِ... يُمْكِنُنا أَنْ نَذْهَبَ وَنَرى، مَنْ يَعْلَمُ؟»

عِنْدَها، صَرَخَ عُمَرُ بِحَماسٍ: «نَعَمْ... نَعَمْ... مِنْ فَضْلِكَ يا أَبي... عَلى الأَقَلِّ سَأَحْظى بِصَديقٍ هُنا. أَرْجوكَ... أَرْجوكَ... رُبَّما سَيَتْرُكُنا الجِنُّ وَشَأْنَنا. سَأَدْعو اللهَ كَثيرًا...»

فَتَنَهَّدَ الأَبُ وَقالَ: «حَسَنًا... لا أَعْتَقِدُ أَنَّني أَسْتَطيعُ تَحَمُّلَ ثَمَنِه، وَلَكِنْ لِنَذْهَبْ وَنَرَ... أَعْرِفُ أَنَّ عُمَرَ لَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ إِلْحاحِهِ حَتّى نَفْعَلَ ذَلِكَ. لِذا، فَلْنَذْهَبْ.»

وَعَلى الفَوْرِ، قامَ والِدُ عَلِيٍّ بِإِجْراءِ عِدَّةِ اتِّصالاتٍ هاتِفِيَّةٍ، وَرَتَّبَ لِقاءً مَعَ المالِكِ، ثُمَّ اقْتَرَحَ: «فَلْنَذْهَبْ بِسَيّارَتي.»



سِرُّنا الصَّغيرُ

«سَمِعْتُ أَنَّكَ مِنْ خارِجِ الرِّياضِ وَتَبْحَثُ عَنْ بَيْتٍ.» بَدَأَ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ الحَديثَ.

«نَعَمْ، لَيْسَ لَدَيَّ الكَثيرُ... لَدَيَّ بَعْضُ المُدَّخَراتِ، وَحَصَلْتُ عَلى وَظيفَةٍ هُنا؛ فَأَنا سَأَعْتَني بِإِبْلِ الشَّيْخِ صالِحٍ.»

«آهٍ، إِنَّها عائِلَةٌ نَبيلَةٌ، وَذاتُ سُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ. وَهُمْ يُنْتِجونَ أَفْضَلَ السُّلالاتِ. لا بُدَّ أَنَّكَ خَبيرٌ في رِعايَةِ الحَيَواناتِ الكَبيرَةِ لِيَتِمَّ تَوْظيفُكَ لَدى عائِلَتِهِمْ.»



فَتَدَخَّلَ عُمَرُ بِلَهْفَةٍ: «أَبي ساعَدَ ناقَةً بَيْضاءَ عَلى الوِلادَةِ بِالأَمْسِ! وَقَدْ شاهَدْتُ ذَلِكَ. كانَ الأَمْرُ مُرْعِبًا وَجَميلًا في الوَقْتِ نَفْسِهِ.»

عِنْدَها، ابْتَسَمَ الأَبُ وَقالَ: «كَما تَرى، ابْني عُمَرُ يَعْشَقُ الحَيَواناتِ أَيْضًا، وَيُريدُ أَنْ نُحْضِرَ بَعْضًا مِنْها مِنْ قَرْيَتِنا. اليَوْمَ ذَهَبْنا لِرُؤْيَةِ بَعْضِ الشُّقَقِ، فَوَجَدْناها صَغيرَةً جِدًّا وَلا تُناسِبُ احْتِياجاتِنا.»

فَرَدَّ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ مُبْتَسِمًا: «أَفْهَمُ... أَفْهَمُ... إِذًا، هَلْ رَأَيْتَ «فيلَّتي» الجَميلَةَ؟ أَتَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَسْتَطيعُ تَحَمُّلَ تَكاليفِها؟»

أَجابَ الأَبُ: «في الحَقيقَةِ، لَمْ أَرَها بَعْدُ، وَلا أَعْتَقِدُ أَنَّني أَسْتَطيعُ تَحَمُّلَ تَكْلِفَتِها... لَكِنْ...»

غَيْرَ أَنَّ عُمَرَ قاطَعَهُ بِحَماسَةٍ: «عُذْرًا يا عَمّي... أَرْغَبُ في أَنْ أَعيشَ بِالقُرْبِ مِنْ صَديقي الوَحيدِ في الرِّياضِ، لِذا تَوَسَّلْتُ إِلى أَبي لِرُؤْيَةِ بَيْتِكَ. سَمِعْتُ أَنَّهُ مَسْكونٌ، وَأَنا أُحِبُّ المُغامَراتِ. المَنْزِلُ المَسْكونُ أَفْضَلُ مِنْ شُقَّةٍ في الطّابِقِ العاشِرِ أَوِ الحادي عَشَرَ...»

فَقالَ الأَبُ بِنَبْرَةِ عِتابٍ: «عُمَرُ، أَوْصَلْتَ وُجْهَةَ نَظَرِكَ. دَعِ الكِبارَ يَتَحَدَّثونَ.»

«آسِفٌ يا أَبي...»

أَكْمَلَ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ بِصَوْتٍ جادٍّ: «حَسَنًا، أَبا عُمَرَ، يَبْدو أَنَّكَ سَمِعْتَ عَنْ بَيْتي وَتُريدُ تَجْرِبَتَهُ. سَأَكونُ صَريحًا مَعَكَ. كانَ هَذا البَيْتُ حُلْمي، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ أَكونَ صادِقًا مَعَكَ. نَعَمْ، قَدْ يَكونُ مَسْكونًا، وَلا أَحَدَ يُريدُ شِراءَهُ كَما هُوَ... وَقَدْ أُضْطَرُّ إِلى هَدْمِهِ... لَكِنْ، دَعْنا نَرَ. ما الَّذي يُمْكِنُكَ تَقْديمُهُ لِشِرائِهِ؟»

فَأَجابَ الأَبُ بِخَجَلٍ: «لَدَيَّ... حَسَنًا، أَخْجَلُ مِنَ القَوْلِ، وَلَكِنَّها

مُدَّخَراتُ عُمْري. لَدَيَّ حَوالَي 200 أَلْفِ رِيالٍ نَقْدًا. وَقَدِ انْتَقَلْتُ إِلى هُنا مِنْ أَجْلِ إِلْحاقِ وَلَدَيَّ الكَبيرَيْنِ بِجامِعَةِ المَلِكِ سعود.»

«هذا لَنْ يُغَطِّيَ حَتّى ثَمَنَ الأَرْضِ. وَلَكِنْ لَدَيَّ عَرْضٌ لَكَ. سَأَمْنَحُكَ عَقْدَ إيجارٍ لِلْبَيْتِ طَويلَ الأَجَلِ. يُمْكِنُكَ اسْتِئْجارُهُ لِمُدَّةِ عامٍ. سَآخُذُ 50 أَلْفَ رِيالٍ الآنَ، وَ50 أَلْفًا أُخْرى بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ؛ إِذا كُنْتَ لا تَزالُ هُنا بِالتَّأْكيدِ. لَكِنْ، عَلَيْكَ أَنْ تَعِدَ بِالبَقاءِ في البَيْتِ مُدَّةَ عامٍ عَلى الأَقَلِّ. أَمّا إِذا قَرَّرْتَ المُغادَرَةَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَسَأَحْتَفِظُ بِـ 50 أَلْفَ رِيالٍ كَغَرامَةٍ! وَبِالتَّأْكيدِ سَتَحْتاجُ إِلى بَعْضِ المالِ لِصِيانَةِ البَيْتِ... إِنَّهُ مَفْروشٌ بِالكامِلِ كَما تَعْلَمُ.»

عِنْدَها، قالَ الأَبُ بِحَذَرٍ: «لَكِنَّني أَحْتاجُ إِلى رُؤْيَتِهِ أَوَّلًا.»

فَأَكْمَلَ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ بِابْتِسامَةٍ خَفيفَةٍ وَحَزْمٍ: «بَعْدَ عامٍ، إِذا كانَ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ والبَيْتُ في حالَةٍ جَيِّدَةٍ فَسَتَدْفَعُ 50 أَلْفًا إِضافِيَّةً، وَسَأُهْديكَ أَحَدَ البُيوتِ الَّتي أَبْنيها تَقْديرًا لَكَ. إِذا كُنْتَ لا تَزالُ في الرِّياضِ بِالتَّأْكيدِ.»

سَأَلَ الأَبُ بِلَهْفَةٍ: «مَتى يُمْكِنُنا رُؤْيَةُ البَيْتِ؟»

«بِمُجَرَّدِ تَوْقيعِ العَقْدِ... هَلْ نُوَقِّعُهُ الآنَ؟»

فَنَظَرَ والِدُ عَلِيٍّ إِلى والِدِ عُمَرَ وَقالَ: «صَدِّقْني، سَيُعْجِبُكَ. هُناكَ مِساحَةٌ واسِعَةٌ، فِناءٌ أَمامِيٌّ كَبيرٌ، وَحَديقَةٌ خَلْفِيَّةٌ أَكْبَرُ.»

ثُمَّ نَظَرَ الأَبُ إِلى عُمَرَ الَّذي كانَ يَنْتَظِرُ بِعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ وَحاجِبَيْنِ مَرْفوعَيْنِ، مُتَرَقِّبًا قَرارَ والِدِهِ بِلَهْفَةٍ.

قالَ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ: «إِذًا، هَلْ يُناسِبُكَ أَنْ نُوَقِّعَ العَقْدَ الآنَ؟»

فَأَجابَ والِدُ عُمَرَ: «تَوَكَّلْنا عَلى اللهِ. نَعَمْ، إِنَّهُ مُناسِبٌ.»

عِنْدَها، هَتَفَ عُمَرُ بِفَرَحٍ: «نَعَمْ... نَعَمْ... نَعَمْ... شُكْرًا يا أَبي... شُكْرًا لَكَ، سَيِّدي.»

قالَ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ بِابْتِسامَةِ تَحْذيرٍ: «تَذَكَّرْ، لا يُمْكِنُكَ كَسْرُ المُدَّةِ الزَّمَنِيَّةِ... وَإِلّا فَسَتَكونُ هُناكَ غَرامَةٌ، أَتَفْهَمُ ذَلِكَ؟»

فَأَجابَ الأَبُ بِثِقَةٍ: «وَأَنْتَ لَنْ تَطْلُبَ إِلَيْنا المُغادَرَةَ قَبْلَ انْتِهاءِ المُدَّةِ. وَإِلّا...»

عِنْدَها، قاطَعَهُ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ قائِلًا: «إِذا فَعَلْتُ، فَسَأُعيدُ لَكَ المَبْلَغَ الَّذي دَفَعْتَهُ وَهُوَ 100 أَلْفٍ، وَسَأُعْطيكَ بيتًا لِيَكونَ مُلْكَكَ وَتَنْتَقِلَ إِلَيْهِ مُباشَرَةً.»

فَقالَ الأَبُ بِارْتِياحٍ: «إِذًا، اتَّفَقْنا.»

ثُمَّ طَلَبَ الدُّكْتورُ أَحْمَدُ مِنْهُمُ الانْتِظارَ رَيْثَما يُحْضِرُ العَقْدَ. وَلَمْ يُضَيِّعْ عُمَرُ وَعَلِيٌّ الوَقْتَ، وَشَرَعا في تَناوُلِ الفاكِهَةِ وَالمُكَسَّراتِ بَيْنَما كانا يَنْتَظِرانِ، مُسْتَمِعَيْنِ إِلى والِدِ عَلِيٍّ وَهُوَ يَصِفُ البَيْتَ.

إِذْ قالَ بِحَماسٍ: «فيهِ سِتُّ غُرَفٍ أَوْ سَبْعٌ في الطّابِقِ العُلْوِيِّ، وَمَجْلِسٌ كَبيرٌ لِاسْتِقْبالِ الضُّيوفِ؛ رُبَّما ثَمانِيَةٌ في عَشَرَةِ أَمْتارٍ، وَصالَةٌ عائِلِيَّةٌ جَميلَةٌ...»

فَتَساءَلَ عُمَرُ بِفُضولٍ: «وَالحَديقَةُ يا عَمّي، هَلْ هِيَ كَبيرَةٌ بِما يَكْفي؟»

عِنْدَها، طَمْأَنَهُ والِدُ عَلِيٍّ قائِلًا: «لا تَقْلَقْ، يُمْكِنُكَ إِحْضارُ جَميعِ حَيَواناتِكَ.»

ثُمَّ سَأَلَ عَلِيٌّ: «هَلْ يُمْكِنُني زِيارَةُ عُمَرَ مَتى شِئْتُ؟»

فَضَحِكَ أَبو عَلِيٍّ وَقالَ: «هههه... عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ الإِذْنَ مِنْ والِدِ عُمَرَ.»

وبَعْدَ ذلِكَ، الْتَفَتَ والِدُ عُمَرَ إلى ابْنِهِ قائِلًا: «عُمَرُ، تَذَكَّرْ أَنَّ مَسْأَلَةَ كَوْنِ البَيْتِ مَسْكونًا يَجِبُ أَنْ تَبْقى سِرَّنا الصَّغيرَ. فَإِذا سَمِعَتْ والِدَتُكَ أَوْ أُخْتُكَ بِالأَمْرِ، قَدْ لا تَنْتَقِلانِ إِلى هُنا أَبَدًا.»

فَوَعَدَهُ عُمَرُ بِحَماسٍ: «أَعِدُكَ، أَبي.»

اسْتِلامُ المَنْزِلِ

«ما شاءَ اللهُ! انْظُرْ إلى هَذِهِ الحَديقَةِ. مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ شَهْبا سَتُحِبُّ المَكانَ هُنا. عَلِيُّ، يُمْكِنُنا وَضْعُ الدَّجاجِ هُنا... وَرُبَّما نَضَعُ بَعْضَ الأَرانِبِ في هَذِهِ المِنْطَقَةِ.»

فَأَجابَ عَلِيٌّ بِحَماسٍ: «نَعَمْ، سَتَكونُ خَلْفَ قَفَصِ أَرانِبِنا تَمامًا. وَلَكِنْ، مِنَ المُهِمِّ أَنْ تَضَعَ أَسْمَنْتًا عَلى الأَرْضِ؛ لِأَنَّ الأَرانِبَ تَحْفِرُ وَتَخْرُجُ مِنَ القَفَصِ. كُنّا نَخْسَرُ الأَرانِبَ إِلى أَنْ وَضَعْنا الأَسْمَنْتَ.»

ضَحِكَ عُمَرُ وَقالَ: أَتُصَدِّقُ؟ عِنْدَما أَخْبَرَ أَبي أُمّي عَنِ البَيْتِ، لَمْ تُصَدِّقْ أَنَّنا سَنَعيشُ في بَيْتٍ مِنْ طابِقَيْنِ مِثْلِ الّذي نَراهُ في التِّلفازِ. أُختي الكَبيرَةُ سَمَرُ وَأَخي الكَبيرُ سَعْدٌ في قِمَّةِ السَّعادَةِ؛ فَأَخيرًا حُلْمُهُما بِالانْتِقالِ إلى الرِّياضِ تَحَقَّقَ، وَبِطَريقَةٍ أَحْسَنَ مِمّا تَخَيَّلا.»







«ووالدَتي أَيْضًا سَعيدَةٌ
لِأَنَّكُمْ سَتَكونونَ جيرانَنا. سَتَكونُ
لَدَيْها جارَةٌ صَديقَةٌ. عُمَرُ، هَلْ أَسْتَطيعُ المَبيتَ
عِنْدَكَ اللَّيْلَةَ؟»

«بِالتَّأْكيدِ! دَعْنا نُحْضِرِ المِخَدّاتِ والشَّراشِفَ، وَنَسْتَخْدِمِ الغُرْفَةَ المُجاوِرَةَ لِلْمَطْبَخِ.»

«هُنا؟!» سَأَلَ عَلِيٌّ مُنْدَهِشًا وَهُوَ يُشيرُ إِلى الْغُرْفَةِ لِيَتَأَكَّدَ أَنَّها فِعْلًا الغُرْفَةُ الّتي يَقْصِدُها عُمَرُ. «أَمُتَأَكِّدٌ يا عُمَرُ؟ أَعْتَقِدُ أَنَّها غُرْفَةُ «الشَّغّالَةِ»...»

«لَكِنْ لَيْسَتْ لَدَيْنا «شَغّالَةٌ»، وَلا أَعْتَقِدُ أَنَّنا سَنُحْضِرُ أَيَّ عامِلَةٍ. فَما المانِعُ مِنْ أَنْ نَسْتَخْدِمَها؟»

في وَقْتٍ لاحِقٍ مِنَ المَساءِ، بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنَ المَسْجِدِ القَريبِ، ذَهَبَ عُمَرُ وَعَلِيٌّ إلى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ لِلْمَطْبَخِ، وَنَفَضا الغُبارَ عَنْها قَليلًا، وَوَضَعا المِخَدّاتِ عَلى السَّجّادَةِ. غَيْرَ أَنَّ غُبارًا كَثيفًا انْتَشَرَ مِنَ السَّجّادَةِ، فَحَمَلاها مَعًا إلى جانِبِ البَيْتِ، وَضَرَباها بِالعَصا لِإِخْراجِ الغُبارِ. وَبَعْدَما أَرْجَعاها إلى الغُرْفَةِ، تَمَدَّدا عَلى الأَرْضِ، وَغَطَّيا نَفْسَيْهِما بِأَغْطِيَةٍ قُطْنِيَّةٍ خَفيفَةٍ وَجَداها في خِزانَةٍ في الطّابِقِ الثّاني. كانَ كُلُّ شَيْءٍ مَليئًا بِالغُبارِ، وَلَكِنَّهُما لَمْ يَنْزَعِجا؛ إِذْ إِنَّ مُجَرَّدَ سُعالٍ خَفيفٍ هُنا وَهُناكَ سَيَكونُ كافِيًا لِتَنْظيفِ الصَّدْرِ وَالحَلْقِ. أَمّا الحَديقَةُ- عَلى عَكْسِ المَنْزِلِ- فَكانَتْ بِحالَةٍ جَيِّدَةٍ.

كانَ اللَّيْلُ قَدْ حَلَّ في الخارِجِ، وَضَوْءُ القَمَرِ يَتَسَلَّلُ مِنَ النّافِذَةِ المَفْتوحَةِ مُضيئًا الغُرْفَةَ. بَقِيَ عُمَرُ صامِتًا بَعْضَ الوَقْتِ، وَهُوَ يُفَكِّرُ في غُرْفَتِهِ في بَيْتِهِ الطّينِيِّ ذي الطّابِقِ الواحِدِ، وَفي القَمَرِ الّذي يَبْدو بِالشَّكْلِ نَفْسِهِ في المَكانَيْنِ، لَكِنَّ الطَّقْسَ في ديسَةَ أَبْرَدُ، وَخاصَّةً في اللَّيْلِ. وَهُناكَ، كانَ يَحْتاجُ إلى غِطاءٍ دافِئٍ.

بَدَأَ عُمَرُ يَشْعُرُ بِالحَنينِ إلى القَرْيَةِ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْهِمُ الانْتِقالَ إلى هُنا، كَما يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ العَيْشَ دونَ أَصْدِقائِهِ مِنَ الحَيَواناتِ. لَيْسَ لَدَيْهِمْ خِيارٌ الآنَ إِلّا التَّأَقْلُمُ عَلى العَيْشِ هُنا مُدَّةَ سَنَةٍ عَلى الأَقَلِّ. لَكِنَّ السُّؤالَ هُوَ: هَلْ يُمْكِنُهُمُ الصُّمودُ؟

«عُمَرُ، هَلْ أَنْتَ نائِمٌ؟!»

«لا، كُنْتُ فَقَطْ أُفَكِّرُ...»

«أَقَلِقٌ أَنْتَ؟ أَمْ خائِفٌ مِنَ الجِنِّ؟»

«ههههه، الجِنُّ؟ لااااا... الجِنُّ يَخافونَ مِنَ الّذي لا يَخافُ مِنْهُمْ... أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَوْجودونَ، لَكِنْ طالَما أَنَّهُمْ مِنَ النَّوْعِ الطَّيِّبِ فَلَنْ يُضِرّونا... سَمِعْتُ أَنَّ بَعْضَ النّاسِ يَشْتَرونَ بُيوتًا مَسْكونَةً ثُمَّ يَطْرُدونَ الجِنَّ مِنْها...»

«هَلْ تَتَوَقَّعُ أَنْ تَكْتَشِفَ أُمُّكَ الحَقيقَةَ في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ؟»

«عَلِيّ، هَلْ أَنْتَ قَلِقٌ؟»

«إِطْلاقًا... بِالتَّأْكيدِ لا... أَعْني، بِصَراحَةٍ، رُبَّما قَليلًا... في الواقِعِ، في الماضي لَمْ أَكُنْ أَجْرُؤُ عَلى الاقْتِرابِ مِنْ هذا المَكانِ لَيْلًا؛ إِذْ كُنْتُ أَخافُ أَنْ يُلاحِقَني جِنِّيٌّ. انْظُرْ إِلَيَّ الآنَ، أَنا مُسْتَلْقٍ في البَيْتِ المَسْكونِ.»

فَجْأَةً، سُمِعِ في المَكانِ صَوْتُ صَريرٍ!

«ما هذا...؟!» صَرَخَ عَلِيٌّ مُتَفاجِئًا.

جَلَسَ الصَّبِيّانِ بِسُرْعَةٍ وَتَبادَلا نَظْراتِ قَلَقٍ.

«رُبَّما هذا أَبي، فَبَعْدَ أَنْ فَحَصَ البَيْتَ، ذَهَبَ لِيَقيسَ الحَديقَةَ. تَذَكَّرْ يا عَلِيُّ ماذا يَقولُ النّاسُ: الجِنُّ يُلاحِقونَ مَنْ يَخافُ مِنْهُمْ. فَلا تَخَفْ وَإِلّا...»

«مَنْ قالَ هَذا؟»

«لا أَذْكُرُ، فَقَطْ سَمِعْتُها. المُهُمُّ يا عَلِيُّ... في الأُسْبوعِ القادِمِ سَتَحْضُرُ أُمّي وأَخي وأُخْتي، أَتَمَنّى أَلّا تَقولَ والِدَتُكَ لَهُمْ شَيْئًا.»

فَقالَ عَلِيٌّ: «دَعْنا نَتَعَوَّذْ لِنُحَصِّنَ نَفْسَيْنا وَنَكونَ مُتَأَكِّدَيْنِ.»

عِنْدَها، أَوْمَأَ عُمَرُ بِرَأْسِهِ، وَبَدَأَ الصَّبِيّانِ يَتْلُوانِ الآياتِ القُرْآنِيَّةَ الّتي تَحْمي مِنْ شَرِّ الجِنِّ.

الانْتِقالُ إلى المَنْزِلِ الجَديدِ

تَوَقَّفَتْ سَيّارَةُ «البيك أب» البَيْضاءُ أَمامَ «الفيلّا»، وَكانَتْ تَسْحَبُ خَلْفَها عَرَبَةً لِنَقْلِ الخُيولِ اسْتَعارَها والِدُ عُمَرَ مِنْ صَديقٍ لَهُ في ديسَةَ. في العَرَبَةِ، كانَتِ البَقَرَةُ وَشَهْبا. أَمّا مُؤَخَّرَةُ «البيك أب» فَقَدِ امْتَلَأَتْ بِالأَكْياسِ وَالصَّناديقِ الّتي تَحْتَوي عَلى المَلابِسِ، وَالبَهاراتِ، وَأَغْراضِ المَطْبَخِ مِثْلِ القُدورِ الخاصَّةِ بِأُمِّ عُمَرَ، وَأَهَمُّها قالَبُ الحَلْوى المُمَيَّزُ لِتَحْضيرِ «الكيك».

كانَتْ لَدى والِدَيْهِ حَقيبَةٌ جِلْدِيَّةٌ بُنِّيَّةٌ مُكَعَّبَةُ الشَّكْلِ بِها حِزامانِ جِلْدِيّانِ. وَكانَتْ هَذِهِ الحَقيبَةُ غالِيَةً عَلى قَلْبِ والِدَتِهِ، فَقَدِ اسْتَخْدَمَتْها حينَ انْتَقَلَتْ مِنْ بَيْتِ أَهْلِها عِنْدَ زَواجِها





مِنْ والِدِهِ. وَالآنَ، ها هِيَ تَحْمِلُ مَلابِسَهُمُ الفاخِرَةَ. بِالكادِ كانَتْ هُناكَ مِساحَةٌ كافِيَةٌ لِقَفَصِ الدَّجاجِ الَّذي احْتَلَّ تَقْريبًا ثُلُثَ مُؤَخَّرَةِ «البيك أب».

بَدَتْ والِدَتُهُ مُتَحَمِّسَةً لِلْغايَةِ وَهِيَ تَدْخُلُ مِنْ بابِ «الفيلّا» الأَمامِيِّ، وَقَدْ خَلَعَتْ عَباءَتَها السَّوْداءَ الطَّويلَةَ. «ما شاءَ اللهُ، ما شاءَ اللهُ، لا إِلَهَ إِلّا اللهُ، لا إِلَهَ إِلّا اللهُ. هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ هَذا المكانَ سَيَكونُ بَيْتَنا؟ هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّنا قادِرونَ عَلى تَحَمُّلِ تَكاليفِهِ؟ لِماذا يَبيعونَهُ بِهَذا الثَّمَنِ الزَّهيدِ؟ هَلْ فيهِ مُشْكِلَةٌ؟ هَلْ هُناكَ شَيْءٌ تُخْفيهِ عَنّي؟»

فَضَحِكَ والِدُهُ وَقالَ: «لَمْ نَشْتَرِهِ، بَلْ نَحْنُ نَسْتَأْجِرُهُ بِثَمَنٍ زَهيدٍ بِهَدَفِ الاعْتِناءِ بِهِ. نَحْنُ مُسْتَأْجِرونَ وَمَسْؤولونَ عَنِ الحِفاظِ عَلَيْهِ. لِذَلِكَ، تَوَقَّفي عَنْ طَرْحِ كُلِّ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ... وَاسْتَمْتِعي بِالبَيْتِ فَقَطْ. وَالآنَ، عِنْدَما أَكونُ خارِجَ البَيْتِ طَوالَ اليَوْمِ، سَأَكونُ مُطْمَئِنًّا إِلى أَنَّكِ في أَيْدٍ أَمينَةٍ؛ فَجيرانُنا رائِعونَ.»

قامَتْ والِدَتُهُ بِجَوْلَةٍ في البَيْتِ، وَفَتَحَتْ جَميعَ الأَبْوابِ وَالخَزائِنِ، وَأَخَذَتْ تُمَرِّرُ إِصْبَعَها عَلى الأَثاثِ المُغَبَّرِ، وَتُصْدِرُ صَوْتًا كُلَّ مَرَّةٍ. راحَتْ تُدَقِّقُ في كُلِّ شَيْءٍ، فيما عُمَرُ وَوالِدُهُ يَتْبَعانِها خُطْوَةً خُطْوَةً. ماذا لَوْ سَمِعَتْ أَوْ رَأَتْ شَيْئًا غَريبًا؟ الوَضْعُ لا يَحْتَمِلُ المُخاطَرَةَ.

وَبَعْدَما أَنْهَتْ جَوْلَتَها، وَأَدْرَكَتْ أَنَّ البَيْتَ كَبيرٌ قالَتْ: «الصَّيْفُ سَيَنْتَهي وَأَنْتَ وَالأَوْلادُ سَتَذْهَبونَ... وَسَأَجْلِسُ هُنا وَحْدي في هَذا المَكانِ الكَبيرِ...» وَبَدا صَوْتُها حَزينًا وَقَلِقًا، فَشَعَرَ عُمَرُ بِالقَلَقِ؛ إِذْ يَبْدو أَنَّ أُمَّهُ تَفْتَقِدُ بَيْتَهُمْ في ديسَةَ.

«هذا البَيْتُ كَبيرٌ، وَالمَكانُ حارٌّ.»

فَأَجابَ والِدُهُ مُبْتَسِمًا: «هُنا عِنْدَنا مُكَيِّفاتٌ، وسَأُعَلِّمُكِ كَيْفِيَّةَ اسْتِخْدامِها. سَتَتَعَلَّمينَ أَشْياءَ جَديدَةً كَثيرَةً.»

وَضَعَتْ سَمَرُ يَدَها عَلى كَتِفِ والِدَتِها وَقالَتْ: «أُمّي... لا تَقْلَقي... سَيَكونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ. فَلَدَيْكِ البَقَرَةُ وَالدَّجاجاتُ وَالحَيَواناتُ الأُخْرى، لَنْ تَشْعُري بِالوَحْدَةِ.»

وَبَدَتْ سَمَرُ مُتَحَمِّسَةً جِدًّا، وَكَأَنَّها لَمْ تَفْتَقِدْ بَيْتَهُمُ القَديمَ. وَصاحَتْ قائِلَةً: «سَأُصْبِحُ فَتاةَ المَدينَةِ! وَسَأُخْبِرُ صَديقاتي الكَثيرَ مِنَ الأَشْياءِ عِنْدَما نَعودُ! أوه، شُكْرًا أَبي، شُكْرًا جَزيلًا! أَنْتَ الأَفْضَلُ!»

ثُمَّ قَبَّلَتْ والِدَها عَلى رَأْسِهِ، وَوالِدَتَها عَلى كِلْتا وَجْنَتَيْها، وَبَعْدَ ذَلِكَ رَكَضَتْ إِلى الطّابِقِ العُلْوِيِّ مَرَّةً أُخْرى.

مَسَحَتْ أُمُّ عُمَرَ الغُبارَ عَنْ أَصابِعِها وَابْتَسَمَتْ بِصُعوبَةٍ، وَقالَتْ: «رُبَّما لَنْ أَشْعُرَ بِالوَحْدَةِ، وَلَكِنَّني بِالتَّأْكيدِ سَأَكونُ مَشْغولَةً، وَسَأَحْتاجُ إِلى مُساعَدَةٍ في تَنْظيفِ هَذا المَكانِ.»

سَمِعَها سَعْدٌ فَقالَ: «سَأُساعِدُكِ عِنْدَما لا أَكونُ مَشْغولًا بِالدِّراسَةِ.»

وَأَضافَ عُمَرُ: «وَالأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ، شَهْبا هُنا. أَنا مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّنا كُلَّنا سَنُحِبُّ المَكانَ هُنا. سَيَبْدو الأَمْرُ وَكَأَنَّنا لَمْ نَنْتَقِلْ قَطُّ. سَتَكونينَ مَشْغولَةً جِدًّا بِالعِنايَةِ بِالبَيْتِ وَالحَيَواناتِ لِدَرَجَةِ أَنَّكِ لَنْ تُلاحِظي غِيابَنا.»

كانَ الجَميعُ يُحاوِلونَ قَوْلَ شَيْءٍ لَطيفٍ لِمُساعَدَةِ الأُمِّ في تَقَبُّلِ المَكانِ.

قالَتْ سَمَرُ مَرَّةً أُخْرى وَهِيَ تَنْزِلُ الدَّرَجَ بِرَشاقَةٍ، رافِعَةً رَأْسَها بِفَخْرٍ: «شُكْرًا يا أَبي! أُحِبُّ غُرْفَتي بِالفِعْلِ... لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ مَكْتَبٌ لِلدِّراسَةِ مِنْ قَبْلُ. وَأَعْجَبَني العَيْشُ في الطّابِقِ الثّاني لِلتَّغْييرِ. اللَّوْنُ

الخَوْخِيُّ جَديدٌ عَلَيَّ؛ أَحْبَبْتُهُ! لا أَسْتَطيعُ الانْتِظارَ لِدُخولِ الجامِعَةِ... أَشْعُرُ وَكَأَنَّني أَميرَةٌ.»

وَخَرَجَ سَعْدٌ مِنَ المَطْبَخِ مُتَّجِهًا نَحْوَ الصّالَةِ، وَأَعْلَنَ: «سَآخُذُ الغُرْفَةَ في الطّابِقِ السُّفْلِيِّ. فَلَها مَدْخَلٌ مُباشَرٌ إلى المَطْبَخِ وَبابٌ يُطِلُّ عَلى الحَديقَةِ. يُعْجِبُني هَذا؛ إِذْ يُمْكِنُني دَعْوَةُ أَصْدِقائي في أَيِّ وَقْتٍ.»

بِالتَّأْكيدِ، أَزْعَجَ هَذا عُمَرَ فَقالَ: «لَكِنْ، هَذا لَيْسَ عَدْلًا يا سَعْدُ... الإِخْوَةُ الكِبارُ دائِمًا يَحْصُلونَ عَلى ما يُريدونَهُ... أَنا أُريدُ تِلْكَ الغُرْفَةَ! نِمْتُ فيها اللَّيْلَةَ الأولى! حَتّى قَبْلَ أَنْ نُحْضِرَكَ إِلى هُنا!»

فَابْتَسَمَ سَعْدٌ وَقالَ: «لا تَقْلَقْ يا أَخي الصَّغيرُ... سَآخُذُ الغُرْفَةَ الّتي في الحَديقَةِ الأَمامِيَّةِ؛ فَهِيَ أَفْضَلُ، وَلَها حَمّامٌ خاصٌّ، إِذا كانَ هَذا مُناسِبًا لَكَ يا أَبي؟»

«لا مُشْكِلَةَ. أَنا سَعيدٌ لِأَنَّ كُلًّا مِنْكُمْ وَجَدَ الغُرْفَةَ الّتي يُحِبُّها.»

«حَتّى شَهْبا أَعْجَبَتْها الحَديقَةُ.»

«أوه، ذَكَّرْتَني، فَلْيُذَكِّرْكَ اللهُ بِالشَّهادَةِ؛ لا يُمْكِنُنا أَنْ نَدَعَها تُفْسِدُ كُلَّ الأَزْهارِ يا عُمَرُ. لا تَنْسَ أَنَّنا مَسْؤولونَ عَنِ الحِفاظِ عَلى المَكانِ، ولا يَنْبَغي لَنا تَخْريبُهُ! ارْبُطْها، وَأَوَّلُ شَيْءٍ سَنَقومُ بِهِ في الصَّباحِ هُوَ الذَّهابُ لِشِراءِ السِّلْكِ وَبَقِيَّةِ المُسْتَلْزَماتِ لِنَصْنَعَ سِياجًا لَها وَلِلْبَقَرَةِ، وَنَبْنِيَ قَفَصًا لِلدَّجاجِ. اسْتَعِدّا يا سَعْدُ ويا عُمَرُ، هذا سَيَكونُ مَشْروعَنا لِهذا الأُسْبوعِ.»

ثُمَّ خَرَجَتْ والِدَةُ عُمَرَ مِنَ المَطْبَخِ قائِلَةً: «نَحْتاجُ إِلى بَعْضِ الأَغْراضِ لِإِعْدادِ العَشاءِ وَغَداءِ الغَدِ يا أَبا سَعْدٍ.»

فَأَجابَ الأَبُ: «جيرانُنا سَيُرْسِلونَ لَنا الغَداءَ في الْأَيّامِ الثَّلاثَةِ

القادِمَةِ. لِذا، اسْتَغِلّي الوَقْتَ في تَرْتيبِ المَكانِ. سَأُحْضِرُ فولًا وتِميسًا بَعْدَ صَلاةِ العِشاءِ وَأَنا في طَريقِ عَوْدَتي مِنَ المَسْجِدِ.»

تَمْتَمَتْ والِدَةُ عُمَرَ وَهِيَ تَصْعَدُ الدَّرَجَ: «لا أَعْرِفُ إذا كُنْتُ سَأُحِبُّ المَكانَ هُنا... فَهُوَ كَبيرٌ جِدًّا... وَفاخِرٌ جِدًّا... هُناكَ شَيْءٌ ما لا يُريحُني. أُفَضِّلُ العَوْدَةَ.»

فَقالَتْ لَها سَمَرُ الّتي كانَتْ تَمْشي خَلْفَها: «أَرْجوووكِ يا أُمّي، عَلى الأَقَلِّ حاوِلي. أَنا أَحْبَبْتُ المَكانَ هُنا؛ إِذْ لا تَحْصُلُ الكَثيرُ مِنَ البَناتِ في قَرْيَتِنا عَلى فُرْصَةِ العَيْشِ في بَيْتٍ كَهَذا، وَالدِّراسَةِ في الجامِعَةِ.»

«لَكِنَّكُمْ جَميعًا سَتُساعِدونَني في شُغْلِ البَيْتِ!»

رَدَّتْ سَمَرُ بِابْتِسامَةٍ: «تَعْرِفينَ أَنَّهُ يُمْكِنُكِ الاعْتِمادُ عَلَيَّ.»

وَرَفَعَ سَعْدٌ يَدَهُ مُوافِقًا مِنَ الطّابِقِ السُّفْلِيِّ.

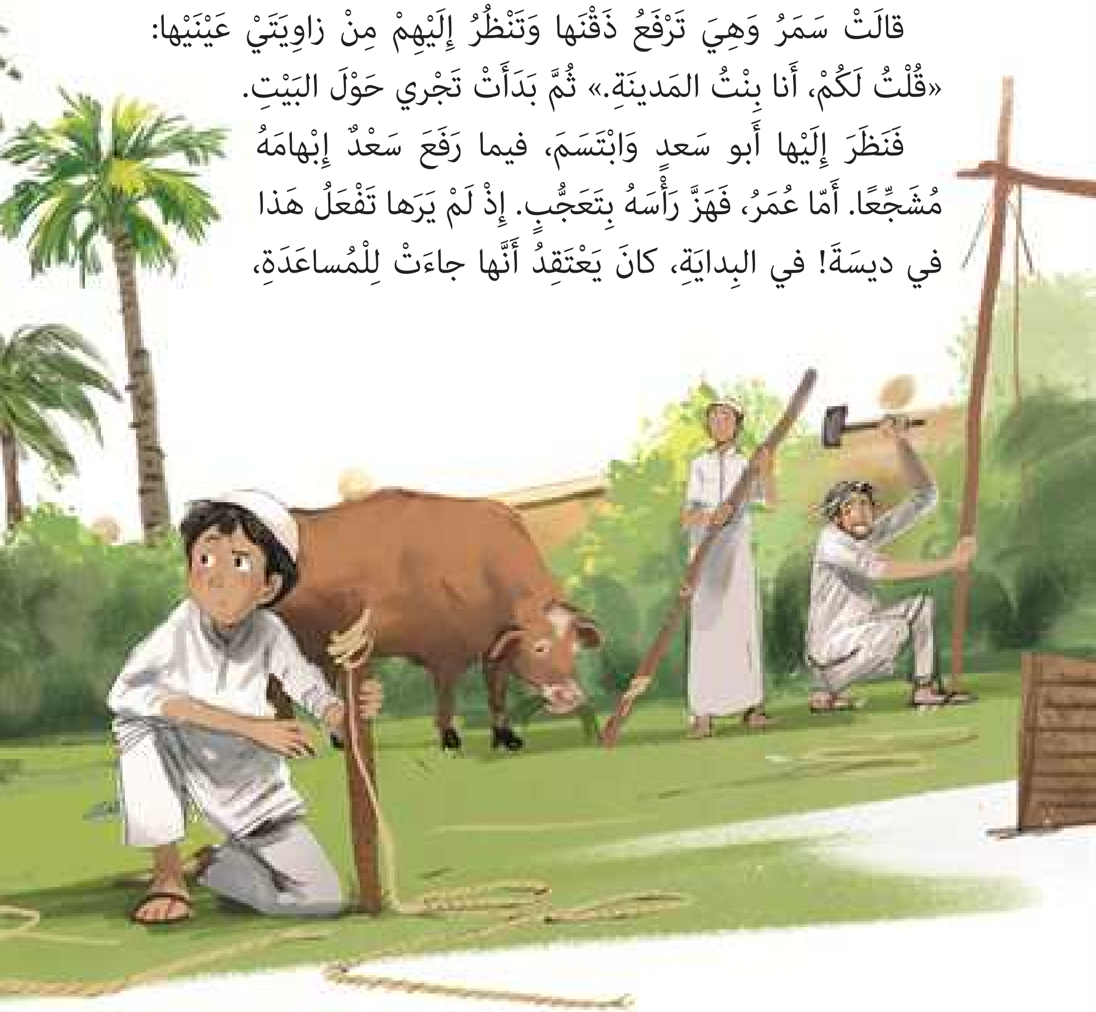
«وَسَأُغْلِقُ الغُرَفَ الإِضافِيَّةَ، حَتّى لا نَحْتاجَ إِلى القَلَقِ بِشَأْنِ تَنْظيفِها.»

ماذا حَدَثَ مَعَ سَمَرَ؟

اسْتَغْرَبَ عُمَرُ لِأَنَّ سَمَرَ لَمْ تَنْزِلْ لِمُساعَدَتِهِمْ في تَجْهيزِ المَكانِ لِلْحَيَواناتِ. وَقَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ سُؤالِها، لَمَحَها تُطِلُّ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَتِها. وَبَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ، نَزَلَتْ لابِسَةً بِنطالًا غَريبًا وَقَميصًا! وَبَدَأَتْ تُهَرْوِلُ حَوْلَ الحَديقَةِ.

قالَتْ سَمَرُ وَهِيَ تَرْفَعُ ذَقْنَها وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ زاوِيَتَيْ عَيْنَيْها: «قُلْتُ لَكُمْ، أَنا بِنْتُ المَدينَةِ.» ثُمَّ بَدَأَتْ تَجْري حَوْلَ البَيْتِ.

فَنَظَرَ إِلَيْها أَبو سَعد وَابْتَسَمَ، فيما رَفَعَ سَعْدٌ إِبْهامَهُ مُشَجِّعًا. أَمّا عُمَرُ، فَهَزَّ رَأْسَهُ بِتَعَجُّبٍ. إِذْ لَمْ يَرَها تَفْعَلُ هَذا في ديسَةَ! في البِدايَةِ، كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّها جاءَتْ لِلْمُساعَدَةِ،



وَلَكِنَّها عَلى ما يَبْدو جاءَتْ لِتَسْتَعْرِضَ البِنْطالَ الجَديدَ. ماذا أَصابَها؟

في الجَوْلَةِ الثّانِيَةِ، عِنْدَما اقْتَرَبَتْ مِنْهُمْ، كانَتْ مَلامِحُها كَما لَوْ أَنَّها رَأَتْ شَبَحًا! غَيْرَ أَنَّها لَمْ تَقُلْ شَيْئًا، وَدَخَلَتِ المَنْزِلَ مِنْ بابِ المَطْبَخِ.



فَنظَرَ عُمَرُ إلى أَبيهِ. ولِأَنَّ سَعْدًا كانَ واقِفًا بِالقُرْبِ مِنْهُما، لَمْ يَكُنْ بِإِمْكانِ عُمَرَ مُناقَشَةُ الأَمْرِ مَعَهُ.

ظَلَّ عُمَرُ مُحْتارًا طَوالَ اليَوْمِ. وَفي النِّهايَةِ، لَمْ يَسْتَطِعْ إلّا أَنْ يَسْأَلَها: «كَيْفَ كانَ الجَرْيُ اليَوْمَ؟ الجَوُّ كانَ حارًّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

عِنْدَها، رَدَّتْ بِارْتِباكٍ: «كانَ عادِيًّا. وَلَكِنَّني تَذَكَّرْتُ شَيْئًا كانَ عَلَيَّ فِعْلُهُ، فَدَخَلْتُ البَيْتَ بِسُرْعَةٍ.»



غَيْرَ أَنَّ عُمَرَ لاحَظَ تَوَتُّرَها لِبَقِيَّةِ اليَوْمِ. فَعِنْدَما جَرَّ كُرْسِيَّ المَطْبَخِ، تَجَمَّدَتْ في مَكانِها وَهِيَ تَنْظُرُ بِشَكٍّ نَحْوَ بابِ المَطْبَخِ. كُلُّ ما احْتاجَتْ إِلَيْهِ كانَ مُكالَمَةً هاتِفِيَّةً مِنْ إِحْدى صَديقاتِها في ديسَةَ لِتَتَذَكَّرَ فَجْأَةً أَنَّها «سَعيدَةٌ هُنا». وَهَكَذا، بَدَأَتْ تَتَحَدَّثُ بِحَماسٍ عَنْ مُتْعَةِ الجَرْيِ في الحَديقَةِ، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلى عُمَرَ وَقَرَّرَتِ الذَّهابَ إِلى غُرْفَتِها لِإِكْمالِ المُكالَمَةِ.



عِنْدَها، ذَهَبَ عُمَرُ إِلى أَبيهِ في غُرْفَتِهِ، وَكانَتْ أُمُّهُ في المَطْبَخِ.

«أَبي، هَلْ ذَكَرَتْ لَكَ سَمَرُ شَيْئًا عَمّا حَدَثَ صَباحَ اليَوْمِ؟ أَعْني، لِماذا تَوَقَّفَتْ عَنِ الجَرْيِ في الحَديقَةِ فَجْأَةً؟»

«لا. لَكِنْ تَذَكَّرْ يا عُمَرُ، لا نُريدُ أَنْ يَشْعُروا بِأَنَّنا نَحْميهِمْ أَكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي. وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ، يَجِبُ أَنْ نَكونَ صادِقينَ وَحَذِرينَ في ما نَقولُهُ. عِنْدَما يَنْتَهي كُلُّ هَذا، عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْرِفوا أَنَّنا كُنّا صادِقَيْنِ طَوالَ الوَقْتِ. تَذَكَّرِ الحِكْمَةَ: «قُلْ خَيْرًا أَوِ اصْمُتْ».»

وَفي وَقْتٍ لاحِقٍ مِنْ بَعْدِ الظُّهْرِ، جاءَ عَلِيٌّ وَمَعَهُ حَلْوًى مَصْنوعَةٌ مِنْ عَجينٍ مَحْشُوٍّ بِالتَّمْرِ أَعَدَّتْها والِدَتُهُ. «هَيّا، تَفَضَّلْ...»

دَعا عُمَرُ عَلِيًّا لِيَدْخُلَ الحَديقَةَ، وَأَخْبَرَهُ بِما حَدَثَ في وَقْتٍ سابِقٍ مِنَ اليَوْمِ، فَاسْتَمَعَ عَلِيٌّ بِاهْتِمامٍ.

«عُمَرُ، تَذَكَّرْ ما قُلْتُهُ لَكَ سابِقًا، وَكَيْفَ أَنَّني كُنْتُ أَشْعُرُ بِعَدَمِ الارْتِياحِ عِنْدَما أَذْهَبُ إِلى حَديقَةِ بَيْتِنا الخَلْفِيَّةِ، وَخاصَّةً في اللَّيْلِ. فَالجِدارُ الخَلْفِيُّ المُشْتَرَكُ بَيْنَنا كانَ يُرْعِبُني. وَلَكِنْ، لِسَبَبٍ ما أَنا بِخَيْرٍ الآنَ، رُبَّما لِأَنَّكَ هُنا.»

فَصَمَتَ عُمَرُ؛ إِذْ كانَ لَدَيْهِ الكَثيرُ مِنَ التَّساؤُلاتِ وَالأُمورِ الّتي يُريدُ فَهْمَها لِمَعْرِفَةِ ما يَنْتَظِرُهُمْ.

ثُمَّ قَطَعَ عَلِيٌّ حَبْلَ الصَّمْتِ قائِلًا: «لِماذا لا تَسْأَلُها؟»

«ها... لا أَسْتَطيعُ... رُبَّما لِأَنَّني لا أُريدُ أَنْ يَكونَ الأَمْرُ حَقيقِيًّا. يَوْمًا ما، سَنَكْتَشِفُ الحَقيقَةَ جَميعًا. هُناكَ أَشْياءُ كَثيرَةٌ أَتَمَنّى أَنْ أَكْتَشِفَها.»

«وَأَنا كَذَلِكَ. سَنُحاوِلُ أَنْ نَتَعاوَنَ لِطَرْدِ الجِنِّ. وَلَكِنْ عَلَيْنا أَنْ نَكْتَشِفَ الطَّريقَةَ فَقَطْ.»



المُواجَهَةُ الأولى

بَعْدَ حَوالَي أُسْبوعٍ مِنْ وُصولِهِمْ. كانَتْ والِدَةُ عُمَرَ واقِفَةً في المَطْبَخِ، مُمْسِكَةً بِالمِلْعَقَةِ في يَدِها، وَرَأْسُها مائِلٌ تَسْتَمِعْ.

«عُمَرُ، هَلْ سَمِعْتَ هَذا؟»

«لا، لَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا.» قالَ عُمَرُ، مُحاوِلًا إخْفاءَ أَيِّ أَثَرٍ لِلْقَلَقِ.

فَبَدَأَتْ والِدَتُهُ تَتَجَوَّلُ في المَطْبَخِ، وَتَلْمِسُ الأَسْطُحَ، تَفْتَحُ أَبْوابَ الخَزائِنِ وَتُغْلِقُها، وَتَنْظُرُ مِنَ النَّوافِذِ.

«لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُمَيِّزَ ما إذا كانَ الصَّوْتُ قَدْ أَتى مِنَ الحَديقَةِ، أَوْ مِنَ الشّارِعِ، أَوْ مِنْ داخِلِ البَيْتِ. انْتَبِهْ، عُمَرُ، سَيَعودُ الصَّوْتُ مَرَّةً أُخْرى.»

«آسِفٌ يا أُمّي، عَلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ إِلى الحَديقَةِ لِأَعْتَنِيَ بِشَهْبا. سَأُخْبِرُكِ إذا سَمِعْتُ شَيْئًا هُناكَ.»

ثُمَّ انْطَلَقَ عُمَرُ إلى خارِجِ المَطْبَخِ، وَتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ عِنْدَما وَصَلَ إِلى شَهْبا. بَدَأَ يُرَبِّتُ عَلى رَأْسِها وَهُوَ يَشْعُرُ بِالقَلَقِ. لَنْ يَطولَ الوَقْتُ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ أُمُّهُ أَنَّ الأَصْواتَ

الغَريبَةَ تَأْتي مِنْ داخِلِ المَنْزِلِ، وَحينَها سَيَكونونَ في وَرْطَةٍ.

وَأَثْناءَ تَجْوالِهِ حَوْلَ الحَديقَةِ مَعَ شَهْبا، وَجَدَ عُمَرُ المَكانَ المِثالِيَّ لِلِّقاءاتِ السِّرِّيَّةِ مَعَ عَلِيٍّ. كانَ في الحَديقَةِ الجانِبِيَّةِ، بِالقُرْبِ مِنْ سِياجِ شَهْبا. إِذْ تَحْتَ مِظَلَّةٍ مَعْدِنِيَّةٍ كَبيرَةٍ مُغَطّاةٍ بِنَباتِ الياسَمينِ الوَرْدِيِّ والجَهَنَّمِيَّةِ ذاتِ الأَزْهارِ الوَرْدِيَّةِ، كانَ المَكانُ مِثالِيًّا لِاجْتِماعٍ سِرِّيٍّ بَيْنَ صَديقَيْنِ في مُهِمَّةٍ خاصَّةٍ.



سَمِعَ عَلِيٌّ صَوْتَ عُمَرَ وَهُوَ يَمْشي في الحَديقَةِ، فَناداهُ: «هَلْ هذا وَقْتٌ مُناسِبٌ لَأَجيءَ؟»

«بِالتَّأْكيدِ...»

وَعِنْدَما وَصَلَ عَلِيٌّ، أَخْبَرَ عُمَرَ أَنَّهُ كانَ يُحاوِلُ مُنْذُ الصَّباحِ إِيجادَ وَسيلَةٍ مُناسِبَةٍ لِلتَّواصُلِ مَعَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ.

«نَعَمْ، نَحْتاجُ إِلى وَسيلَةٍ خاصَّةٍ لِلتَّواصُلِ في ما بَيْنَنا.»

ناقَشا خِياراتٍ مُخْتَلِفَةً، مِثْلَ رَمْيِ الحَصى؛ لَكِنَّ ذَلِكَ بَدا غَيْرَ مُناسِبٍ. فيما صُراخُ كُلٍّ مِنْهُما بِاسْمِ

الآخَرِ لَمْ يَكُنْ لائِقًا، وَسَيَلْفِتُ الانْتِباهَ؛ وَهُما لا يَرْغَبانِ في أَنْ يَعْرِفَ الآخَرونَ.

«عُمَرُ، قَبْلَ بِضْعَةِ أَيّامٍ، أَعْتَقِدُ أَنَّني سَمِعْتُكَ تَصْفِرُ لِشَهْبا.»

«نَعَمْ، بَيْني وَبَيْنَها صَفيرٌ خاصٌّ تُمَيِّزُهُ شَهْبا. كُنْتُ أَسْتَخْدِمُهُ عِنْدَما تكونُ بَعيدَةً عَنّي في ديسَة.»

وَهَكَذا، جَرَّبَ الصَّديقانِ عِدَّةَ نَغْماتٍ مِنَ الصَّفيرِ حَتّى وَجَدا النَّغْمَةَ المُناسِبَةَ الّتي لَمْ تَكُنْ واضِحَةً كَثيرًا وَلَكِنْ يَصْعُبُ تَقْليدُها، وَقَرّرا اسْتِعْمالَها كَرَمْزٍ سِرِّيٍّ لِلنِّداءِ.

وَحينَ غادَرَ عَلِيٌّ، رَشَّ عُمَرُ النَّباتاتِ بِالمِياهِ مَرَّةً أُخْرى؛ لِيَجْعَلَ الجَوَّ مُنْعِشًا كَما لَوْ أَنَّهُمْ في غُرْفَةٍ مُكَيَّفَةٍ. كانَ يَعْرِفُ أَنَّ شَهْبا لا بُدَّ أَنَّها تَشْعُرُ بِالحَرِّ أَيْضًا؛ حَيْثُ كانَتْ تَسْتَلْقي بِتَكاسُلٍ تَحْتَ أَغْصانِ الياسَمينِ. مَلَأَ دَلْوَها بِماءٍ بارِدٍ مُنْعِشٍ يَحْتَفِظُ بِهِ في الزّيرِ- الوِعاءِ الطّينِيِّ- الّذي وَضَعوهُ في الظِّلِّ؛ إِذْ إِنَّ ماءَ الصُّنْبورِ كانَ حارًّا جِدًّا لِدَرَجَةِ أَنَّكَ لا تَسْتَطيعُ الاسْتِحْمامَ بِهِ، بَلْ بِإِمْكانِكَ تَقْريبًا سَلْقُ بَيْضَةٍ فيهِ! وَلَكِنْ بَعْدَ تَرْكِ الماءِ في الزّيرِ، يُصْبِحُ بارِدًا كَما لَوْ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الثَّلّاجَةِ. وَلِهَذا يَحْتَفِظونَ بِكوبٍ مَعْدَنِيٍّ بِجِوارِهِ. وَبَعْدَ أَنْ مَلَأَ دَلْوَ شَهْبا، أَعادَ مَلْءَ الوِعاءِ.

لا يَزالُ هُناكَ أَكْثَرُ مِنْ ساعَتَيْنِ حَتّى وَقْتِ الغَداءِ. شَعَرَ عُمَرُ بِالجوعِ وَالعَطَشِ، فَقَرَّرَ الدُّخولَ إِلى المَطْبَخِ لِتَناوُلِ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ وَيَشْرَبُهُ.

رَأَى أُمَّهُ واقِفَةً بِلا حَراكٍ عِنْدَ طاوِلَةِ المَطْبَخِ، وَبَدَتْ وَكَأَنَّها تُحاوِلُ اكْتِشافَ شَيْءٍ ما. كانَتْ نَظْرَتُها تُحَذِّرُهُ بِأَنْ يَبْقى بَعيدًا! لَكِنْ فاتَ الأَوانُ...

«عُمَرُ... هَلْ سَمِعْتَ ما سَمِعْتُهُ أَنا؟!»

أَصْبَحَ هذا الأَمْرُ عادَةً؛ الاسْتِماعُ، والتَّساؤُلُ، وَمُحاوَلَةُ تَجَنُّبِ الاسْتِماعِ وَالتَّساؤُلِ.

«ما الَّذي سَمِعْتِهِ يا أُمّي؟» وَتَظاهَرَ عُمَرُ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا... لَمْ تَكُنْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَسْمَعُ فيها صَوْتَ صَريرٍ غَريبًا في المَطْبَخِ وَفي غُرْفَتِهِ... وَلَكِنْ، ما المُشْكِلَةُ؟ في الواقِعِ، لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِالقَلَقِ... إِنَّها مُجَرَّدُ أَصْواتٍ... تَمامًا كَالأَصْواتِ الّتي كانَ يَسْمَعُها في ديسَةَ عِنْدَما كانَ يَبْحَثُ عَنْ شَهْبا لَيْلًا وَيَمُرُّ عَبْرَ المَقْبَرَةِ القَديمَةِ. لَمْ يَكُنْ يَخْشى الجِنَّ. عَلاوَةً عَلى ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَجالٌ لِلتَّراجُعِ عَنِ البَيْتِ؛ إِذْ سَيَفْقِدُ أَبوهُ مُدَّخَراتِهِ وَكُلَّ جُهْدِهِ، وَسَتَبْقى الماعِزُ دونَ مَكانٍ تَذْهَبُ إِلَيْهِ. لِذا، لَمْ تَكُنْ بَعْضُ الأَصْواتِ الغَريبَةِ تُشَكِّلُ لَهُ أَيَّ إِزْعاجٍ.

«نَعَمْ، سَمِعْتُهُ أَنا أَيْضًا يا أُمّي...» قالَتْ سَمَرُ ذَلِكَ وَهِيَ تَدْخُلُ المَطْبَخَ، وَتابَعَتْ: «في الواقِعِ، سَمِعْتُ أَصْواتًا غَريبَةً أَيْضًا في غُرْفَتي اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ... وفي الحَديقَةِ الخَلْفِيَّةِ قَبْلَ أَيّامٍ. لِأَكونَ صَريحَةً، شَعَرْتُ بِبَعْضِ الخَوْفِ... ماذا تَتَوَقَّعينَ؟»

«مِمَّ أَنْتِ خائِفَةٌ؟ رُبَّما كُنْتِ تَحْلُمينَ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ هَذا القَبيلِ... أَنْتِ دائِمًا تُحِبّينَ اخْتِراعَ تِلْكَ القِصَصِ... أَعْتَقِدُ أَنَّ السَّبَبَ هُوَ تِلْكَ الرِّواياتُ الّتي تُحِبّينَ قِراءَتَها.»

«ما الَّذي قُلْتَهُ يا عُمَرُ؟!»

«حَقًّا، لا أَفْهَمُ البَناتِ. فَفي يَوْمٍ تُحِبّينَ شَيْئًا، وفي اليَوْمِ الثّاني تَكْرَهينَهُ! وَالآنَ، هَلْ تُحِبّينَ أَنْ تَعودي إِلى ديسَةَ؟»

«تَوَقَّفْ، تَوَقَّفْ... لِماذا أَنْتَ غاضِبٌ فَجْأَةً؟ ما الّذي أَصابَكَ؟ هَلْ فاتَني شَيْءٌ ما هُنا؟»

«لا بَأْسَ. سَأَخْرُجُ لِأَتَفَقَّدَ المَكانَ؛ فَرُبَّما يَكونُ ما تَسْمَعانِهِ بِسَبَبِ

شَهْبا. رُبَّما نَسيتُ أَنْ أَرْبُطَها... يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ وَأَتَفَقَّدَها... وَعَدْتُ أَبي بِذَلِكَ... عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ...»

«يا إِلهي! مَرَّ الأَمْرُ بِسَلامٍ...» تَمْتَمَ عُمَرُ وَهُوَ يَنْدَفِعُ خارِجًا وَيُغْلِقُ بابَ المَطْبَخِ خَلْفَهُ بِقُوَّةٍ.

بَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ، عادَ عُمَرُ إِلى البَيْتِ، وَذَهَبَ مُباشَرَةً إِلى غُرْفَةِ الطَّعامِ لِيَتَناوَلَ بِضْعَ حَبّاتٍ مِنَ التَّمْرِ المَوْضوعِ في وِعاءٍ عَلى الطّاوِلَةِ، مُتَجَنِّبًا المَطْبَخَ. كانَتْ أُمُّهُ وَسَمَرُ لا تَزالانِ هُناكَ، تَتَناقَشانِ في مَسْأَلَةِ تِلْكَ الأَصْواتِ الغَريبَةِ الَّتي كانَتا تَسْمَعانِها.

«إِذًا، أَيْنَ كانَتْ شَهْبا؟» سَأَلَتْهُ أُمُّهُ مِنَ المَطْبَخِ.

«اعْتَنَيْتُ بِها. لا داعِيَ لِلْقَلَقِ... عَلَيَّ الذَّهابُ...»

«ما بِكَ يا عُمَرُ؟ في الآوِنَةِ الأَخيرَةِ، لَمْ تَعُدْ تَتَصَرَّفُ عَلى طَبيعَتِكَ. لَمْ تَعُدْ تَتَحَدَّثُ مَعي كَما في السّابِقِ، دائِمًا تَهْرُبُ... ما بِكَ؟ لِماذا؟»

لَكِنْ على الرَّغْمِ مِنْ حَرارَةِ الجَوِّ في الخارِجِ، فَضَّلَ عُمَرُ الخُروجَ لِتَجَنُّبِ النِّقاشِ، حامِلًا وِعاءَ التَّمْرِ مَعَهُ. رَشَّ النَّباتاتِ المُتَسَلِّقَةَ مِنْ تَحْتِ المِظَلَّةِ. وَكانَ يَعْرِفُ أَنَّ شَهْبا تَحْتاجُ إِلى الصُّحْبَةِ.

«شَهْبا، هَلْ تُريدينَ حَمّامًا مُنْعِشًا؟»

فَأَجابَتْهُ شَهْبا بِصَوْتِ «باااا».

عَدّ عُمَرُ هَذا تَأْكيدًا، فَرَشَّها بِالماءِ كَما فَعَلَ مَعَ نَباتاتِ الياسَمينِ وَالجَهَنَّمِيَّةِ.

كانَتْ شَهْبا تُوَفِّرُ لَهُ العُذْرَ المِثالِيَّ في كُلِّ مَرَّةٍ يَحْتاجُ فيها إِلى التَّظاهُرِ بِأَنَّهُ مَشْغولٌ. فَكَّ رِباطَها، وَأَخَذَها مَعَهُ تَحْتَ المِظَلَّةِ. كانَتْ تُحِبُّ تَسَلُّقَ الأَشْياءِ، فَراقَبَها وَهِيَ تَتَسَلَّقُ المَقاعِدَ الإِسْمَنْتِيَّةَ وَتَأْكُلُ مِنْ بَعْضِ النَّباتاتِ، غَيْرَ أَنَّهُ حَرَصَ عَلى أَلّا تَأْكُلَ كَثيرًا.





شَهْبا هِيَ السَّبَبُ

كانَ عُمَرُ يَمْشي مَعَ أُمِّهِ في الحَديقَةِ بَحْثًا عَنْ أَفْضَلِ مَكانٍ لِزَرْعِ بَعْضِ الخُضْرَواتِ.

سَأَلَها عُمَرُ: «ما رَأْيُكِ في هذا المَكانِ؟ إِنَّهُ قَريبٌ مِنَ المَطْبَخِ، وَظَليلٌ في فَتْرَةِ الظَّهيرَةِ.»

أُعْجِبَتْ أُمُّهُ بِاقْتِراحِهِ وَقالَتْ: «الآنَ، عَلَيْنا نَقْلُ جَميعِ النَّباتاتِ وَالبُذورِ الّتي أَحْضَرْناها مَعَنا مِنْ ديسَةَ.»

كانَ عُمَرُ يُحِبُّ العَمَلَ في الزِّراعَةِ مَعَ أُمِّهِ، وَلَكِنَّهُ يُريدُ قَضاءَ بَعْضِ الوَقْتِ مَعَ عَلِيٍّ أَيْضًا.

«أُمّي، ما رَأْيُكِ لَوْ أَرْشَدْتِني إِلى أَماكِنِ الزَّرْعِ المُناسِبَةِ لِكُلٍّ مِنْها وَسَأَقومُ بِذَلِكَ مَعَ عَلِيٍّ؟ فَالجَوُّ حارٌّ عَلَيْكِ هُنا.»

فَابْتَسَمَتْ، وَبَدَأا بِنَقْلِ كُلِّ شَيْءٍ إِلى مَكانِهِ.

«مَهْلًا! انْظُرْ...!» قالَتْ أُمُّهُ بِدَهْشَةٍ حينَ اكْتَشَفَتْ أَنَّ بَعْضَ النَّعْناعِ وَالبَقْدونِسِ قَدْ تَضَرَّرَ.



«كانَتْ هُناكَ حَوالَي خَمْسَ عَشْرَةَ شَتْلَةَ طَماطِم، وَالآنَ لَمْ يَتَبَقَّ سِوى سِتٍّ! أَيْنَ الشَّتْلاتُ الأُخْرى؟ مَنْ أَخَذَها؟ أَعْتَقِدُ أَنَّنا بِحاجَةٍ إلى وَضْع سِياجٍ حَوْلَها.»

«سَأَطْلُبُ إِلى سَعْدٍ مُساعَدَتي في صُنْعِ السِّياجِ في وَقْتٍ لاحِقٍ مِنْ هَذا المَساءِ. هِممم... رُبَّما جاءَتْ شَهْبا أَوْ حَصَلَ شَيْءٌ مِنْ هَذا القَبيلِ.»

قَدَّمَتِ الأُمُّ تَوْجيهاتٍ واضِحَةً لِمَكانِ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ قالَتْ: «اِسْتَخْدِمْ هذهِ الخُيوطَ، وَأَحْضِرْ بَعْضَ العِصِيِّ لِجَعْلِ الخُطوطِ مُسْتَقيمَةً. ضَعِ الطَّماطِمَ في صَفٍّ، وَاتْرُكْ مِساحَةً لِلْباذِنْجانِ لِيَمْتَدَّ. لاحِقًا، سَنَحْتاجُ إلى عِصِيٍّ لِدَعْمِ الطَّماطِمِ وَالخِيارِ.»

فَابْتَسَمَ عُمَرُ، وَقالَ لَها إِنَّهُ سَيَفْعَلُ ما بِوُسْعِهِ، وَرُبَّما سيَأْخُذُ بَعْضَ النَّصائحِ مِنْ عَلِيٍّ أَيْضًا. وَشَعَرَ عُمَرُ أَنَّ أُمَّهُ كانَتْ قَلِقَةً عَلى «أَطْفالِها» مِنَ النَّباتاتِ الّتي أَحْضَرَتْها مِنْ مَنْزِلِهِمْ في ديسَةَ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ دَخَلَتِ الأُمُّ المَنْزِلَ، أَطْلَقَ عُمَرُ صَفيرَهُ السِّرِّيَّ، فَرَدَّ عَلَيْهِ عَلِيٌّ عَلى الفَوْرِ، وَكَأَنَّهُ كانَ يَنْتَظِرُ اللَّحْظَةَ المُناسِبَةَ لِلْقُدومِ.

«هَلْ تَسْتَطيعُ المَجيءَ الآنَ؟» سَأَلَ عُمَرُ.

وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى وَصَلَ عَلِيٌّ، فَفَتَحَ لَهُ عُمَرُ البابَ الأَمامِيَّ، وَبَدَأَ يَشْرَحُ لَهُ المَهامَّ المَطْلوبَةَ. رَسَما خُطوطًا، وَحَدَّدا الأَماكِنَ. عَمِلا مَعًا وَكَأَنَّ كُلًّا مِنْهُما يَفْهَمُ أَفْكارَ الآخَرِ تَمامًا. عَرَفا كَيْفَ يَنْبَغي أَنْ تَكونَ كُلُّ حُفْرَةٍ، وَأَوْصى عَلِيٌّ بِبَعْضِ الأَسْمِدَةِ الخَفيفَةِ لِلطَّماطِمِ.

وَبَعْدَ أَنْ شَعَرَتِ الأُمُّ بِالرّاحَةِ بِفَضْلِ تَقَدُّمِهِما في العَمَلِ، تَوَقَّفَتْ عَنْ مُراقَبَتِهِما قائلَةً:

«أَنْتُما تُؤَدِّيانِ عَمَلًا رائِعًا؛ لِذا سَأَتْرُكُكُما لِتُنْهِياهُ. سَأَكونُ في المَطْبَخِ في حالِ احْتَجْتُما إِلَيَّ.»

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ أَصْبَحا وَحْدَهُما، أَخْبَرَ عُمَرُ عَلِيًّا عَنِ النَّباتاتِ المَفْقودَةِ، وَأَنَّهُ بَعْدَ إِنْهائِهِما عَمَلَهُما سَيَعْمَلُ مَعَ سَعْدٍ عَلى إِقامَةِ سِياجٍ حَوْلَها. «قُلْتُ لَها إِنَّ شَهْبا رُبَّما هِيَ الّتي أَكَلَتْها، وَلَكِنَّني لَسْتُ واثِقًا. هَلْ يُحِبُّ الجِنُّ نَباتاتِ الطَّماطِمِ؟»

«لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِمّا يُفَضِّلُهُ الجِنُّ، وَلَكِنَّني سَأَكونُ سَعيدًا بِالمُساعَدَةِ، إِذا أَرَدْتَ.»

«سَيَكونُ هذا رائِعًا، شُكْرًا لَكَ.»

أَرادَ عُمَرُ أَنْ يَسْأَلَ عَلِيًّا عَنِ القِصَصِ الّتي سَمِعَها عَنِ الجِنِّ في هذا المَنْزِلِ، وَظَلَّ يُفَكِّرُ في أَفْضَلِ طَريقَةٍ لِيَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ دونِ أَنْ يَعْتَقِدَ عَلِيٌّ أَنَّهُ خائِفٌ. لَكِنَّهُ قَرَّرَ الانْتِظارَ وَالبَحْثَ عَنِ الإِجاباتِ بِنَفْسِهِ لاحِقًا.

عِنْدَما أَنْهَيا العَمَلَ، كانَ لا يَزالُ هُناكَ وَقْتٌ قَبْلَ أَنْ يَسْتَدْعِيَ سَعْدًا، فَجَلَسا تَحْتَ شَجَرَةِ الياسَمينِ، وَأَخْرَجا شَهْبا وَرَبَطاها بِالقُرْبِ مِنْهُما حَتّى لا تَصِلَ إِلى حَديقَةِ الخُضارِ الخاصَّةِ بِالأُمِّ. وَلَكِنْ، كانَتْ لا تَزالُ تَسْتَطيعُ أَكْلَ العُشْبِ.

«ما الّذي سَتَفْعَلُهُ يا عُمَرُ؟»

«فيمَ؟»

«الجِنّ.»

«لَسْتُ مُتَأَكِّدًا بَعْدُ، لَكِنْ عَلَيْنا التَّفْكيرُ في خُطَّةٍ. سَأُخْبِرُكَ إِذا خَطَرَتْ لي فِكْرَةٌ، وَأَخْبِرْني إِذا تَذَكَّرْتَ أَيَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ عَنِ الجِنِّ هُنا.»

هَمَّ عَلِيٌّ بِالكَلامِ، لَكِنَّ سَعْدًا جاءَ، وَبَدَأُوا بِالعَمَلِ مَعًا في صُنْعِ السِّياجِ. وَهَكَذا، تَوَجَّبَ عَلَيْهِما تَأْجيلُ مَوْضوعِ الجِنِّ.



زِيارَةٌ في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ

مَعَ بَدْءِ أُمّي بِالطَّهْوِ، صارَ البَيْتُ يُشْبِهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ بَيْتَنا في ديسَةَ بِرائِحَتِهِ الفَوّاحَةِ. لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِليها، حَتّى الطَّبْخُ لَمْ يَكُنْ كافِيًا لِجَعْلِها تَشْعُرُ بِالارْتِياحِ بَعْدَ الانْتِقالِ إلى المَدينَةِ. وَكانَتْ تَشْتَكي بِاسْتِمْرارٍ مِنَ الأَصْواتِ الغَريبَةِ. «مَكانٌ مُرْعِبٌ»، كانَتْ تُرَدِّدُ هَذِهِ العِبارَةَ مِرارًا وَتَكْرارًا.

حَتّى إِنَّ سَمَرَ، الَّتي تَقْضي وَقْتًا طَويلًا مَعَ والِدَتي، بَدَأَتْ هِيَ أَيْضًا تَشْعُرُ بِعَدَمِ الرّاحَةِ في هذا المَكانِ.

في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ إِحْدى اللَّيالي، وفيما كانَ الجَميعُ نائِمينَ، جَلَسَ عُمَرُ في المَطْبَخِ يَرْسُمُ وَيَكْتُبُ مُلاحَظاتٍ عَلى وَرَقَةٍ احْتَفَظَ بِها مُنْذُ اليَوْمِ الّذي وصلوا فيهِ إلى هَذا المَنْزِلِ.

أَضاءَ مِصْباحًا خافِتًا فَوْقَ الحَوْضِ، وَفَجْأَةً سَمِعَ صَوْتًا يَصْدُرُ مِنَ الصّالَةِ. كانَتْ سَمَرُ تَمْشي عَلى أَطْرافِ أَصابِعِها نازِلَةً عَلى الدَّرَجِ، وَقَدْ شَغَّلَتْ ضَوْءَ الهاتِفِ المَحْمولِ. وَبِسُرْعَةٍ، أَخْفى الوَرَقَةَ في جَيْبِهِ.





«ما الّذي أَيْقَظَكِ؟» سَأَلَها.
«أَعْتَقِدُ أَنَّني سَمِعْت شَيْئًا... أَصْواتًا، لا أَعْرِفُ. وَأَنْتَ، لِماذا أَنْتَ مُسْتَيْقِظٌ؟»
«أوه... لَمْ أَنْتَبِهْ إِلى أَنَّني أَصْدَرْتُ صَوْتًا عالِيًا وَأَنا أَسْحَبُ الكُرْسِيَّ. آسِفٌ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ كانَ يَتَوَجَّبُ عَلَيَّ حَمْلُهُ بَدَلًا مِنْ سَحْبِهِ عَلى الأَرْضِ.»
فَقالَتْ سَمَرُ: «أَمْسَكْتُ بِكَ! لا تُغَيِّرِ المَوْضوعَ! لِماذا أَنْتَ مُسْتَيْقِظٌ في هَذا الوَقْتِ المُتَأَخِّرِ؟»
عِنْدَها، اضْطُرَّ عُمَرُ إِلى التَّفْكيرِ بِسُرْعَةٍ في عُذْرٍ جَيِّدٍ، وقالَ: «تَعْرِفينَ أَنَّني أَشْعُرُ بِالتَّوَتُّرِ قَبْلَ الذَّهابِ إِلى المَدْرَسَةِ. وفي الأُسْبوعِ القادِمِ سَأَذْهَبُ مَعَ أَبي لِرُؤْيَةِ المَدْرَسَةِ الجَديدَةِ. لا أَعْرِفُ كَيْفَ سَتَكونُ، وَلَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِمّا إِذا كُنْتُ سَأُحِبُّها. لا أَعْرِفُ أَحَدًا هُناكَ، بِاسْتِثْناءِ عَلِيٍّ. لَكِنَّهُ لَنْ يَكونَ في فَصْلي...» وَحَرِصَ عَلى أَنْ يَبْدُوَ قَلِقًا.
«سَتَكونُ بِخَيْرٍ، لا تَقْلَقْ. أَنا مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أَنَّكَ سَتُحِبُّها. الأَشْياءُ الجَديدَةُ قَدْ تَكونُ مُخيفَةً أَحْيانًا؛ تَمامًا مِثْلَما يَحْصُلُ مَعَ أُمّي، فَهِيَ تَجِدُ صُعوبَةً في التَّكَيُّفِ مَعَ هَذا المَكانِ.»
«شُكْرًا، سَمَرُ. كَلامُكِ أَراحَني.»
أَخَذَتْ سَمَرُ كَأْسَ ماءٍ وَعادَتْ إِلى غُرْفَتِها. عندَها، أَخْرَجَ عُمَرُ الوَرَقَةَ المَطْوِيَّةَ الّتي كانَ قَدْ خَبَّأَها في جَيْبِهِ العُلْوِيِّ. فَتَحَها، وَوَضَعَها مُسَطَّحَةً عَلى طاوِلَةِ المَطْبَخِ، وَبَدَأَ مَرَّةً أُخْرى بِكِتابَةِ المَزيدِ مِنَ المُلاحَظاتِ. ثم كَتَبَ عِبارَةَ «غُرْفَةُ سَمَرَ» تَحْتَ قائِمَةٍ تَشْمَلُ «المَطْبَخَ»، كَما كَتَبَ أَيْضًا قائِمَةً بِالأَصْواتِ وَأَوْقاتِ سَماعِها.

شَعَرَ عُمَرُ بِأَنَّ الصَّوْتَ كانَ مُخْتَلِفًا هَذِهِ المَرَّةَ؛ إِذْ بَدا أَشْبَهَ بِالبُكاءِ، وَكانَ أَقْرَبَ وَأَعْلى مِمّا كانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَلِهَذا السَّبَبِ انْدَفَعَ إِلى المَطْبَخِ.

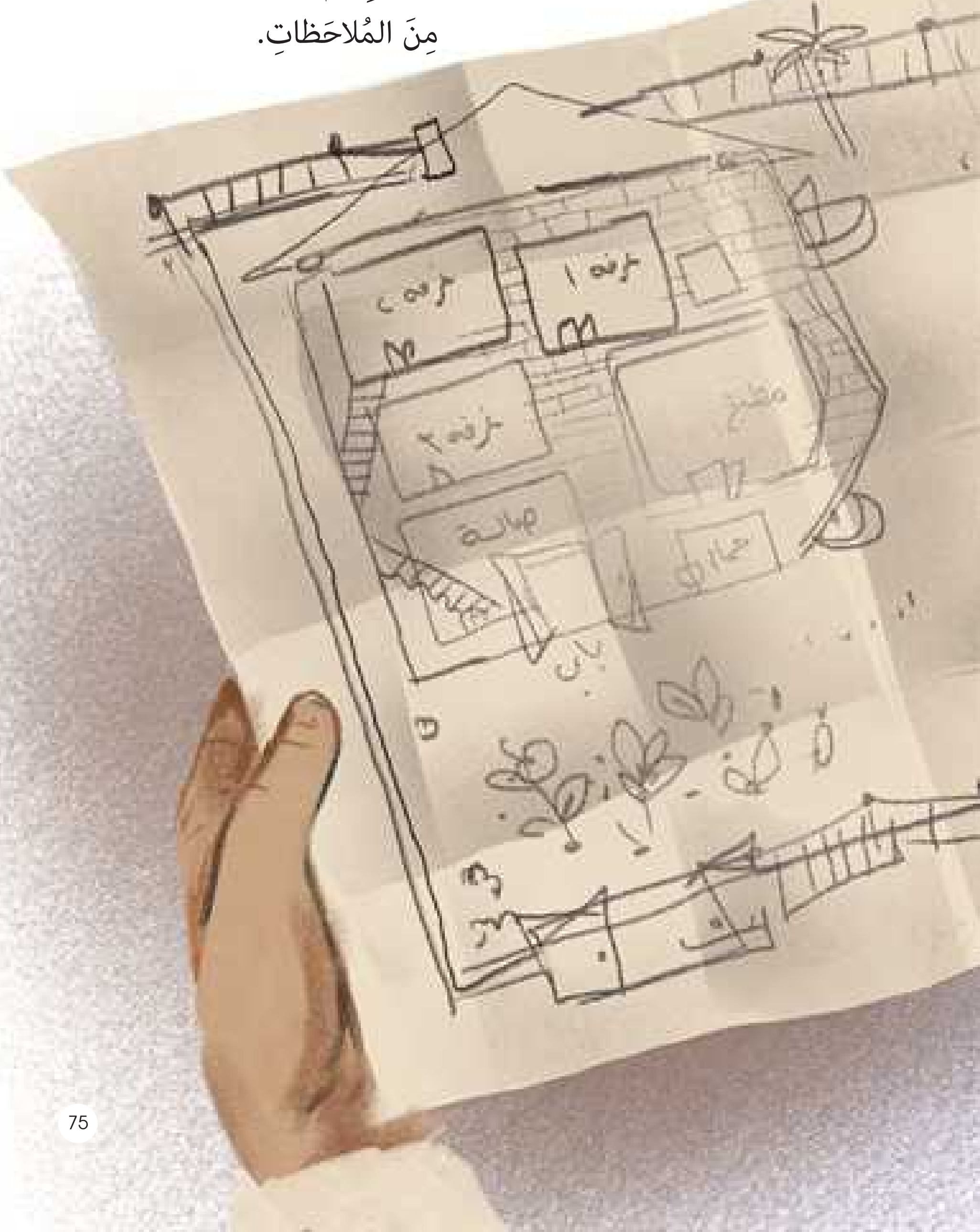
شَعَرَ بِالسَّعادَةِ لِأَنَّهُ وَصَلَ قَبْلَ سَمَرَ، وَفَكَّرَ في سِرِّهِ: «أَيًّا كانوا، لَقَدْ أَخَفْناهُمْ هَذِهِ المَرَّةَ.»

انْتَظَرَ عُمَرُ في المَطْبَخِ بِضْعَ دَقائِقَ، ثُمَّ عادَ إِلى سَريرِهِ. لَكِنْ عِنْدَما يَكونُ الشَّخْصُ مَشْغولَ التَّفْكيرِ، والإِجابَةُ لَيْسَتْ في مُتَناوَلِهِ، يُصْبِحُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ أَنْ يَنامَ مُباشَرَةً. وَالمُشْكِلَةُ



هِيَ عِنْدَما تتَمَنّى لَوْ يَأْتي الصَّباحُ بِسُرْعَةٍ. أَفْضَلُ شَيْءٍ يُمْكِنُهُ فِعْلُهُ هُوَ أَنْ يُحاوِلَ النَّوْمَ حَتّى لا يَشْعُرَ بِالوَقْتِ. كانَ عُمَرُ بِحاجَةٍ إِلى التَّفْكيرِ، وَلَكِنَّهُ أَيْضًا بِحاجَةٍ إِلى مُناقَشَةِ ما حَدَثَ مَعَ عَلِيٍّ.

ظَلَّ يَتَقَلَّبُ عَلى السَّريرِ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنْ يَكْتُبَ المَزيدَ مِنَ المُلاحَظاتِ.



نَفَدَ الصَّبْرُ

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي مُباشَرَةً، دَخَلَتْ أُمّي المَطْبَخ وَصَرَخَتْ: «سَماااار... عُماااار... تَعالَيا إلى هُنا حالًا!»

أُمّي لا تَصْرُخُ بِهذِهِ الطَّريقَةِ إلّا إذا كانَتْ هُناكَ حالَةٌ طارِئَةٌ. وَعَلى الفَوْرِ، رَكَضَتْ سَمَرُ نُزولًا عَلى الدَّرَجِ بِأَقْصى سُرْعَةٍ، فيما انْدَفَعْتُ مِنَ الحَديقَةِ الخَلْفِيَّةِ.

«نَعَمْ، أُمّي!» رَدَّتْ سَمَرُ.

فيما بَدَأْتُ أَتَفَحَّصُ المَطْبَخَ بِعَيْنَيَّ لِأَرى ما قَدْ حَدَثَ. وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَرى شَيْئًا يَتَحَرَّكُ أَوْ أَسْمَعَ أَصْواتًا غَريبَةً.

«مَنِ الَّذي أَطْفَأَ الثَّلّاجَةَ؟ انْظُرا إِلى ما حَصَلَ! كُلُّ شَيْءٍ ذابَ الآنَ. مَنْ فَعَلَ هَذا كانَ مُهْمِلًا جِدًّا!»

وَعَلى الفَوْرِ، فَتَحَتْ سَمَرُ بابَ الثَّلّاجَةِ، وَنَظَرَتْ داخِلَها، ثَمّ أَجالَتْ نَظَرَها حَوْلَها. فَحَصَتْ زِرَّ التَّشْغيلِ وَدَرَجَةَ الحَرارَةِ، وَقالَتْ: «لَكِنْ أُمّي، لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا. الزِّرُّ في وَضْعِيَّةِ التَّشْغيلِ، وَدَرَجَةُ الحَرارَةِ عَلى الرَّقْمِ خَمْسَة لِلثَّلّاجَةِ.»

«والِدُكِ يَقولُ دائِمًا إِنَّني أَسْمَعُ أَصْواتًا لا وُجودَ لَها. انْظُرا، هَلْ أَرى أَشْياءَ لا وُجودَ لَها أَيْضًا؟ انْظُرا إِلى مُكَعَّباتِ الثَّلْجِ وَقَدْ ذابَتْ، فيما الحَليبُ وَكُلُّ شَيْءٍ آخَرُ دافِئٌ... اِلْمِسا الدّاخِلَ فَقَطْ... هَلْ هُوَ بارِدٌ؟ لا! لا يُعْجِبُني هَذا المَكانُ! أَنا غَيْرُ مُرْتاحَةٍ لِلْعَيْشِ في مَنْزِلٍ كَبيرٍ مَعَ كُلِّ هَذِهِ الأَشْياءِ الفاخِرَةِ... لا يَهُمُّني ما يُسَمّونَها، سَواءٌ أَكانَتْ فاخِرَةً أَمْ لا. لَقَدْ نَفَدَ صَبْري!»



عِنْدَها، فَتَحَ عُمَرُ الثَّلّاجَةَ لِيَتَفَحَّصَها، وَكانَتْ أُمُّهُ عَلى حَقٍّ.

وَبَيْنَما كانَتْ أُمُّهُ تَتَحَدَّثُ، دَخَلَ سَعْدٌ لِيَرى سَبَبَ كُلِّ هذا الضَّجيجِ، فَطَلَبَتْ إِلَيْهِ سَمَرُ أَنْ يُساعِدَها في فَحْصِ القابِسِ. دَفَعوا الثَّلّاجَةَ قَليلًا إلى الجانِبِ وَهُمْ يَسْحَبونَها إِلى الأَمامِ؛ إِذْ كانَ القابِسُ في مَكانٍ يَصْعُبُ الوُصولُ إِلَيْهِ. وَحينَ رَأَوا أَنَّهُ ما زالَ مَوْصولًا بِالكَهْرُباءِ في الجِدارِ، أَعادوها إِلى مَكانِها.

«أُمّي، كَمَعْلومَةٍ فَقَطْ، الثَّلّاجَةُ ما زالَتْ مَوْصولَةً بِالكَهْرُباءِ.»

«هذا هُوَ! جَميعُكُمْ شاهَدْتُمْ هَذا! أَنا لا أَتَخَيَّلُ الأَشْياءَ! هَلْ هَذا أَيْضًا يُعَدُّ حَياةً عادِيَّةً في المَدينَةِ؟! أَوَّلًا الأَصْواتُ، ثُمَّ الأَشْياءُ الّتي تَخْتَفي مِنَ المَطْبَخِ، وَالآنَ الثَّلّاجَةُ تَعْمَلُ وَلَكِنَّها لا تَعْمَلُ... ما الّذي سَيَحْدُثُ لاحِقًا؟»

كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ أُمّي قَدْ نَفَدَ صَبْرُها. وَلَكِنْ عَلى الأَقَلِّ، الآنَ تَبْدو غاضِبَةً وَلَيْسَتْ خائِفَةً؛ إِنَّها فَقَطْ تَحْتاجُ إِلى تَفْسيرٍ جَيِّدٍ...

«حَسَنًا، رُبَّما تَسَلَّلَ أَطْفالٌ مِنَ المَدينَةِ لَيْلًا لِيَأْكُلوا شَيْئًا مِنَ المَطْبَخِ.» اِرْتَجَلَ عُمَرُ إِجابَةً سَريعَةً.

«أَوْ رُبَّما هذا المَنْزِلُ مَسْكونٌ.» قالَ سَعْدٌ ذَلِكَ بِصَوْتٍ مُرْتَجِفٍ وَهُوَ يَأْخُذُ زُجاجَةً كَبيرَةً مِنَ الصّودا مِنَ الثَّلّاجَةِ ثُمَّ يَخْرُجُ. لَمْ تَكُنْ بارِدَةً، وَلَكِنَّهُ أَخَذَها عَلَى أَيِّ حالٍ.

فَقالَتْ سَمَرُ: «أوه أُمّي، لا تَهْتَمّي بِما قالَهُ سَعْدٌ، فَأَنْتِ تَعْرِفينَ أَنَّهُ يُحِبُّ إِخافَتَنا. دَعينا نَنْتَظِرْ حَتّى يَأْتِيَ أَبي مَساءً، وَأَنا مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أَنَّهُ سَيُعْطينا تَفْسيرًا لِكُلِّ هذا.»

فَكَّرَ عُمَرُ: لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَقولُ سَمَرُ شَيْئًا مُفيدًا. وَأَعْتَقِدُ أَنَّ السَّبَبَ هُوَ أَنَّها قَدْ تَخْسَرُ الكَثيرَ إِذا قَرَّرَتْ أُمّي العَوْدَةَ. إِذْ بَقِيَتْ فَقَطْ ثَلاثَةُ أَسابيعَ عَلى بَدْءِ الدِّراسَةِ، وَقَدْ بَدَأَتْ بِالفِعْلِ في شِراءِ مُسْتَلْزَماتِها الجامِعِيَّةِ.

في وَقْتٍ لاحِقٍ مِنْ ذَلِكَ المَساءِ، عادَ أَبي وَهُوَ يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ الشَّديدِ، فَأَخْبَرَتْهُ أُمّي بِما حَدَثَ، وَوَعَدَ بِالاعْتِناءِ بِالأَمْرِ. وَلَكِنْ كَالعادَةِ، كانَ أَبي مَشْغولًا وَمُتْعَبًا، وَكادَ أَنْ يَنْسى المَوْضوعَ. بَقِيَتْ أُمّي في الصّالَةِ العائِلِيَّةِ، وَكانَتْ مَشْغولَةً بِقَصِّ قُمْصانِ سَمَرَ

وَفَساتينِها القَديمَةِ الّتي لَمْ تَعُدْ بِحاجَةٍ إِلَيْها لِتَصْنَعَ مِنْها قِطَعًا مُرَبَّعَةً «بيوز» تُمْسِكُ بِها الأَوانيَ السّاخِنَةَ. فَقَدْ كانَتْ هَذِهِ طَريقَتَها في تَخْصيصِ وَقْتٍ لِنَفْسِها. وَتَجَنُّبُها المَطْبَخُ كانَ بِمَثابَةِ إِعْلانٍ واضِحٍ بِأَنَّها لَيْسَتْ سَعيدَةً.

لِوَجْبَةِ العَشاءِ، كانَ عَلى سَعْدٍ أَنْ يَذْهَبَ لِيَجْلِبَ طَبَقَنا المُفَضَّلَ الفولَ، وَخُبْزَ التِّميسِ الكَبيرَ المُدَوَّرَ المُغَطّى بِسِمْسِمٍ إِضافِيٍّ بِالطَّريقَةِ الّتي تُحِبُّها أُمّي.

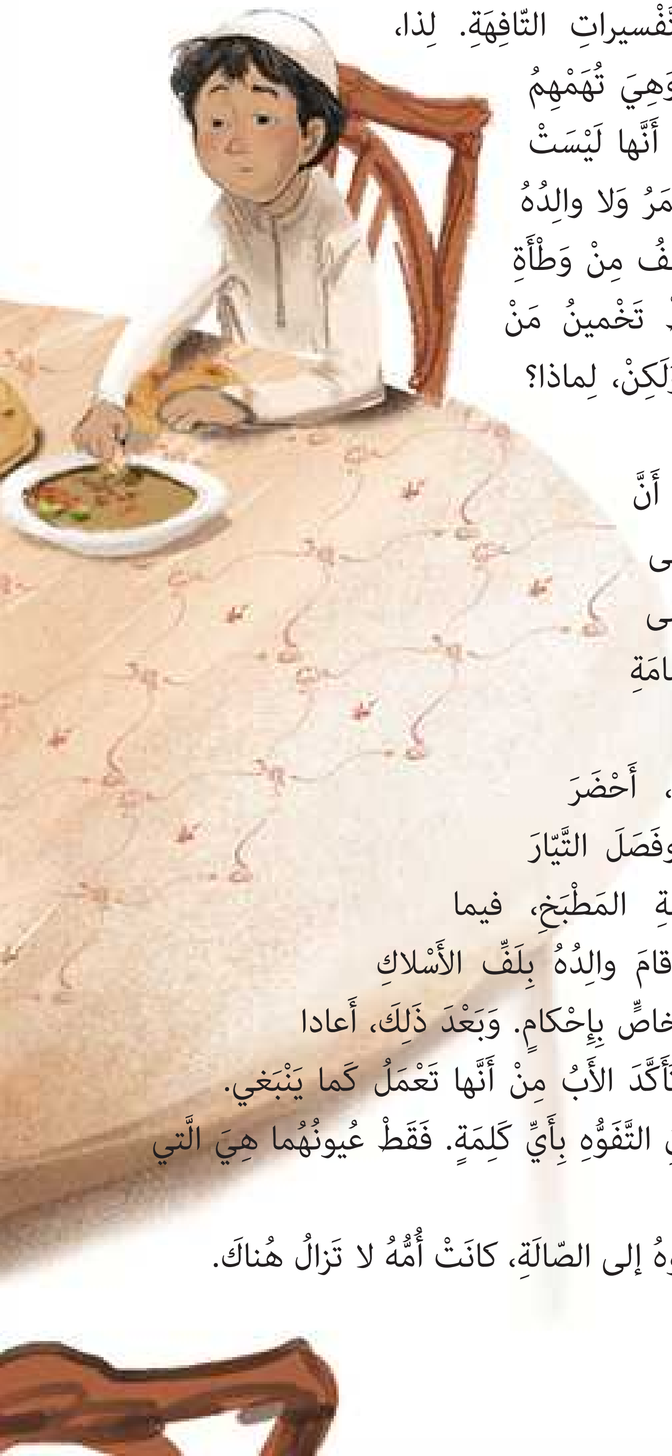
تَعاوَنَ عُمَرُ وَسَمَرُ في تَرْتيبِ الطّاوِلَةِ وَوَضْعِ الأَطْباقِ وَأَدَواتِ الطَّعامِ البلاسْتيكِيَّةِ. وَقَطَعَ عُمَرُ لَيْمونَتَيْنِ خَضْراوَيْنِ صَغيرَتَيْنِ تُسَمَّيانِ «بَنزهير»، بَيْنَما وَضَعَتْ سَمَرُ زُجاجَةَ زَيْتِ الزَّيْتونِ.

بَعْدَ قَليلٍ، وَصَلَ سَعْدٌ وَأَعْلَنَ أَنَّ العَشاءَ جاهِزٌ، فَتَجَمَّعَ الجَميعُ. وَخِلالَ العَشاءِ، لَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدى أَحَدٍ أَيُّ شَيْءٍ يَقولُهُ. بَعْدَ العَشاءِ، ذَهَبَ الجَميعُ إِلى غُرَفِهِمْ بِاسْتِثْناءِ الأَبِ وَعُمَرَ. بَدا الجَوُّ في الصّالَةِ وَكَأَنَّهُ يَنْقُصُهُ الأُكْسِجينُ. شَرِبَ أَبو عُمَرَ الماءَ بَيْنَما كانَ يَقْرَأُ الصَّحيفَةَ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يُعِدَّ الشّايَ. أَخيرًا، تَرَكَ الصَّحيفَةَ وَذَهَبَ لِيَتَفَقَّدَ الثَّلّاجَةَ، فَساعَدَ عُمَرُ والِدَهُ في سَحْبِها بِالكامِلِ. كانَ سِلْكُ الكَهْرُباءِ مَقْطوعًا! وَهُناكَ أَرْنَبٌ مَيْتٌ!

الآنَ، أَصْبَحَتِ الأُمورُ جِدِّيَّةً. تَبادَلَ عُمَرُ وَأَبوهُ النَّظْراتِ، وَكانَتْ عُيونُهُما تَقولُ: «مَنْ قَدْ يَفْعَلُ شَيْئًا كَهَذا؟»

أَسْرَعَ عُمَرُ وَأَحْضَرَ كيسَ البلاسْتيكَ الَّذي يَحْتَوي عَلى الأَطْباقِ الفارِغَةِ الّتي تَناوَلوا بِها العَشاءَ، فَوَضَعَ الأَبُ الأَرْنَبَ داخِلَهُ وَأَغْلَقَهُ عُمَرُ فورًا. وَراحَ كُلٌّ مِنْهُما يَنْتَظِرُ مِنَ الآخَرِ أَنْ يَأْتِيَ بِتَفْسيرٍ.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، دَخَلَتْ أُمّي، أَلْقَتْ نَظْرَةً، ثُمَّ غادَرَتْ.



الحَمْدُ لِلّهِ، لَمْ تَرَ شَيْئًا. مِنَ الواضِحِ أَنَّها لا تُريدُ سَماعَ المَزيدِ مِنَ التَّفْسيراتِ التّافِهَةِ. لِذا، اكْتَفَتْ بِتَرْكِ المَطْبَخِ وَهِيَ تُهَمْهِمُ بِشَيْءٍ ما. مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّها لَيْسَتْ سَعيدَةً. وَلَمْ يَتَمَكَّنْ عُمَرُ وَلا والِدُهُ مِنْ تَقْديمِ تَفْسيرٍ يُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ الوَضْعِ. يُمْكِنُهُما فَقَطْ تَخْمينُ مَنْ قَدْ يَكونُ فَعَلَ هَذا، وَلَكِنْ، لِماذا؟ وَكَيْفَ؟

كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ الكيسَ الَّذي يَحْتَوي عَلى الأَرْنَبِ يَجِبُ أَنْ يُلْقى مُباشَرَةً في حاوِيَةِ القُمامَةِ في الخارِجِ.

وَفي أَثْناءِ عَوْدَتِهِ، أَحْضَرَ الأَبُ بَعْضَ الأَدَواتِ، وفَصَلَ التَّيّارَ الكَهْرُبائِيَّ عَنْ مِنْطَقَةِ المَطْبَخِ، فيما أَحْضَرَ عُمَرُ مِصْباحًا. قامَ والِدُهُ بِلَفِّ الأَسْلاكِ مَعًا، ثُمَّ لَفَّها بِشَريطٍ خاصٍّ بِإِحْكامٍ. وَبَعْدَ ذَلِكَ، أَعادا الثَّلّاجَةَ إلى مَكانِها، وَتَأَكَّدَ الأَبُ مِنْ أَنَّها تَعْمَلُ كَما يَنْبَغي. قاما بِكُلِّ هَذا مِنْ دونِ التَّفَوُّهِ بِأَيِّ كَلِمَةٍ. فَقَطْ عُيونُهُما هِيَ الَّتي كانَتْ تَتَحَدَّثُ.

عِنْدَما عادَ عُمَرُ وَأَبوهُ إلى الصّالَةِ، كانَتْ أُمُّهُ لا تَزالُ هُناكَ.



«إذًا... ماذا وَجَدْتُما؟»

«آهٍ، لا شَيْءَ مُهِمَّ. أَعَدْتُ تَوْصيلَ القابِسِ بِإِحْكامٍ فَقَطْ.»

فَشَعَرَ عُمَرُ بِالرّاحَةِ؛ إِذْ إِنَّ أَباهُ يُمْكِنُهُ دائِمًا أَنْ يَقولَ الحَقيقَةَ، وَلَكِنْ فَقَطْ بِالقَدْرِ الكافي.

عَشاءُ أَبي

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ، دَخَلَ والِدُ عُمَرَ الصّالَةَ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ سَيَعْمَلُ حَتّى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. ثُمَّ نَظَرَ إِلى والِدَةِ عُمَرَ وَقالَ: «لا تَنْتَظِريني يا عَزيزَتي. يُمْكِنُكِ أَنْ تَتْرُكي لي بَعْضَ السَّلَطَةِ الخَضْراءِ عَلى طاوِلَةِ المَطْبَخِ؛ فَقَدْ أَتَناوَلُ العَشاءَ في المَزْرَعَةِ.»

قَبْلَ غُروبِ الشَّمْسِ، خَرَجَ عُمَرُ مَعَ أُمِّهِ لِيَجْمَعا بَعْضَ البَقْدونِسِ الطّازَجِ وَأَوْراقَ النَّعْناعِ وَالجَرْجيرَ. وَبَيْنَما كانا يَمْشِيانِ قُرْبَ البَقَرَةِ، قالَتِ الأُمُّ: «هَلْ لاحَظْتَ كَمْ تَأْكُلُ البَقَرَةُ هُنا؟ إِنَّها تَقْريبًا تَأْكُلُ ضِعْفَ ما كانَتْ تَأْكُلُهُ في بَيْتِنا السّابِقِ! وَتُصْدِرُ خِوارًا أَكْثَرَ تَكْرارًا هُنا.»

«إِذًا، هَلْ تَعْتَقِدينَ يا أُمّي أَنَّها أَسْعَدُ هُنا؟ أَقْصِدُ لِأَنَّها تَأْكُلُ وَتُغَنّي.»

«لَسْتُ مُتَأَكِّدَةً؛ رُبَّما هِيَ حَزينَةٌ، وَلِذَلِكَ تَشْغَلُ نَفْسَها بِالأَكْلِ. كَيْفَ تَبْدو شَهِيَّةٌ شَهْبا؟»

«لَيْسَتْ عَلى طَبيعَتِها مُؤَخَّرًا. لا أَعْلَمُ ما الَّذي أَصابَها. هِيَ...»

وَصَمَتَ عُمَرُ عَنِ الكَلامِ حينَ رَأى المَشْهَدَ أَمامَهُ. إِذْ كانا قَدْ وَصَلا إِلى المَكانِ الَّذي كانَتْ أُمُّهُ تَزْرَعُ فيهِ بَعْضَ الخُضَرَواتِ الطّازَجَةِ. شَيْءٌ ما قَدْ أَكَلَ الخُضارَ! تَبادَلَتِ الأُمُّ وَابْنُها النَّظْراتِ بِدَهْشَةٍ.

«مَنْ...؟ ماذا...!؟» قالَتْ أُمّي.

كانَ عُمَرُ مُنْدَهِشًا مِثْلَ أُمِّهِ، وَلَكِنْ كَما كانَ يَفْعَلُ في كُلِّ مَرَّةٍ يَحْدُثُ فيها شَيْءٌ خاطِئٌ، حاوَلَ أَنْ يَتَحَمَّلَ المَسْؤولِيَّةَ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يُريدُ أَنْ تَشُكَّ أُمُّهُ بِأَنَّ المَنْزِلَ مَسْكونٌ.

«آسِفٌ، شَعَرَتْ شَهْبا بِالوَحْدَةِ، فَاضْطُرِرْتُ إِلى إِخْراجِها. رَبَطْتُها، وَلَكِنْ رُبَّما كانَ الحَبْلُ طَويلًا بَعْضَ الشَّيْءِ.»

«لِهُنَيْهَةٍ، اِعْتَقَدْتُ أَنَّ أَوْلادَ المَدينَةِ رُبَّما يَعْبَثونَ بِحَديقَتِنا؛ تَمامًا مِثْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ حينَ أَكَلوا بَعْضَ السَّلَطَةِ الَّتي وَضَعْتُها لِوالِدِكَ في المَطْبَخِ.»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، بَدَأَ عُمَرُ يُدْرِكُ أَنَّ الجِنَّ في مَنْزِلِهِمْ لَدَيْهِمْ شَهِيَّةٌ كَبيرَةٌ، وَيَبْدو أَنَّهُمْ يُحِبّونَ الخُضارَ. إِذْ لَمْ يَبْدُ أَنَّهُمْ يَهْتَمّونَ بِالوُرودِ كَثيرًا.

«إِذًا، هَذا هُوَ الصَّوْتُ الَّذي أَسْمَعُهُ دائِمًا. كُنْ حَذِرًا أَكْثَرَ يا عُمَرُ.»

وَهَكَذا، قامَ عُمَرُ وَأُمُّهُ بِجَمْعِ الأَوْراقِ الطّازَجَةِ، وَأَعادا تَرْتيبَ التُّرْبَةِ وَالنَّباتاتِ في مَكانِها، ثُمَّ قاما بِتَوْزيعِ بَعْضِ النَّباتاتِ لِتَوْفيرِ مِساحَةٍ أَكْبَرَ لَها.





«الأَمْرُ جيِّدٌ الآنَ يا عُمَرُ. أَعْتَقِدُ أَنَّ تَوْزيعَ النَّباتاتِ بِهذهِ الطَّريقَةِ سَيَجْعَلُها تَنْمو بِشَكْلٍ أَفْضَلَ. عِنْدَئِذٍ فَهِمَ عُمَرُ السَّبَبَ الَّذي يَجْعَلُ عَلِيًّا لا يُحِبُّ المَجيءَ إِلى الحَديقَةِ الخَلْفِيَّةِ لِمَنْزِلِهِمْ لَيْلًا.

«أَتَعْلَمُ شَيْئًا يا عُمَرُ؟ الآنَ أَفْهَمُ سَبَبَ وَضْعِ أَهْلِ المَدينَةِ أَسْوارًا حَوْلَ بُيوتِهِمْ؛ فَهُمْ يَعيشونَ في خَوْفٍ دائِمٍ.»

«أَتَساءَلُ: مِمَّ يَخافونَ؟» فيما فَكَّرَ في سِرِّهِ: «هَلْ لَدى الجَميعِ جِنٌّ في بُيوتِهِمْ؟»

«صَحيحٌ، الأَسْوارُ أَوِ السَّلاسِلُ لا تَجْعَلُ المَكانَ آمِنًا إِذا لَمْ نَكُنْ حَذِرينَ.»

«أُمّي، أَلا تَخافينَ مِنْ شَيْءٍ؟»

«أَعْتَقِدُ أَنَّنا جَميعًا لَدَيْنا مَخاوِفُنا الصَّغيرَةُ، وَخاصَّةً عِنْدَما لا نَعْرِفُ ما نَتَعامَلُ مَعَهُ.»

عِنْدَما أَنْهَيا إِعادَةَ الأَشْياءِ إِلى ما كانَتْ عَلَيْهِ، هَمَّتْ أُمُّهُ بِالوُقوفِ، فَقَدَّمَ لَها عُمَرُ يَدَ العَوْنِ. اِبْتَسَمَتْ وَقالَتْ: «لَقَدْ مَضى وَقْتٌ مُنْذُ أَنْ زَرَعْنا مَعًا يا عُمَرُ.»

عُمَرُ أَيْضًا اِفْتَقَدَ هَذِهِ الأَوْقاتَ مَعَ أُمِّهِ، وَلَكِنَّهُ كانَ حَريصًا عَلى أَلّا يَقولَ الكَثيرَ. وَكانَ فَقَطْ يَتَساءَلُ عَمّا إِذا كانَ مِنَ الجَيِّدِ أَنْ يُخْفِيَ هَذا السِّرَّ عَنْها.

فِعْلُ شَيْءٍ حِيالَ الأَمْرِ

كانَ سَعْدٌ يَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِهِ إمّا في غُرْفَتِهِ الخاصَّةِ في الفَناءِ، وَإمّا في الخُروجِ لِمُقابَلَةِ أَشْخاصٍ جُدُدٍ وَالتَّعَرُّفِ عَلى المَدينَةِ. وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ ما يَقولُهُ عِنْدَما كانَتْ والِدَتُهُ وَسَمَرُ تَتَحَدَّثانِ عَنِ الأَصْواتِ وَالأَشْياءِ الغَريبَةِ الّتي تَحْدُثُ في المَنْزِلِ، وَلا حتّى تِلْكَ الّتي تَسْمَعانِها لَيْلًا. وَعِنْدَما قالَتا إِنَّهُما أَحْيانًا تَشْعُرانِ وَكَأَنَّ هُناكَ شَخْصًا آخَرَ في الغُرْفَةِ، اكْتَفى بِالرَّدِّ: «غُرْفَتي مُريحَةٌ.»

لا بُدَّ أَنَّ سَعْدًا قَدْ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ أَصْدِقائِهِ عَنِ المَنْزِلِ؛ إِذْ راحَ يُكَرِّرُ: «قُلْتُ لَكُمْ إِنَّ المَنْزِلَ مَسْكونٌ»، ثُمَّ يَضْحَكُ وَيُغادِرُ. كانَ لَدَيْهِ الكَثيرُ لِيَتَعَلَّمَهُ وَيَقومَ بِهِ، وَلِذَلِكَ قَلَّما بَقِيَ في المَنْزِلِ. وَكانَ يَقْضي وَقْتَهُ في التَّدَرُّبِ لِلْحُصولِ عَلى رُخْصَةِ القِيادَةِ الرَّسْمِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ سَيَبْقى في الرِّياضِ مُدَّةً لا تَقِلُّ عَنْ أَرْبَعِ إِلى خَمْسِ سَنَواتٍ.

تَعْليقاتُ سَعْدٍ حَوْلَ المَنْزِلِ المَسْكونِ أَزْعَجَتْ عُمَرَ. وَفي كُلِّ مَرَّةٍ قالَ فيها ذَلِكَ، راحَ قَلْبُ عُمَرَ يَنْبِضُ بِسُرْعَةٍ، وضاقَتْ عَيْناهُ. إِذْ إِنَّ هذِهِ التَّعْليقاتِ جَعَلَتْ أُمَّهُ أَكْثَرَ تَوَتُّرًا؛ وَكُلَّما كانَتْ كَذلِكَ، راحَتْ تَتَساءَلُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. سَبَقَ أَنْ قالَتْ أُمُّهُ إِنَّها تَحْتاجُ إِلى فَهْمِ ما يَجْري. وَلَكِنْ، هَلْ سَتُساعِدُها هَذِهِ التَّعْليقاتُ عَلى الفَهْمِ؟ وَهَلْ هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لِلْعَيْشِ في مَنْزِلٍ مَسْكونٍ؟ كَثيرًا ما تَدورُ في ذِهْنِ عُمَرَ أَفْكارٌ وَتَعْليقاتٌ عَلى تَصَرُّفاتِ سَعْدٍ؛ إِذْ يَجِبُ على الإِخْوَةِ الكِبارِ أَنْ يَكونوا أَكْثَرَ حِكْمَةً، وأَلّا يَتَفَوَّهوا بِكَلِماتٍ كَهَذِهِ تُثيرُ قَلَقَ أُمَّهاتِهِمْ.

وتَساءَلَ عُمَرُ: لِماذا لا يَذْهَبُ سَعْدٌ وَيَطْرَحُ شُكوكَهُ عَلى أَبي؟

ما الَّذي يُحاوِلُ القِيامَ بِهِ بِتَفَوُّهِهِ بِهَذِهِ التَّعْليقاتِ اللّامُبالِيَةِ؟ رُبَّما كانَ سَعْدٌ يَقولُ ما يَشْعُرُ بِهِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْهِ ما يَخْسَرُهُ- عَلى عَكْسي أنا الَّذي قَدْ أَخْسَرُ كُلَّ شَيْءٍ- أَوْ رُبَّما لِأَنَّ أَبي وَسَعْدًا مَشْغولانِ، وَقَلَّما يَلْتَقِيانِ.

إِذا قَرَّرَتْ أُمُّهُ الرَّحيلَ، فَلَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ إيقافَها؛ فَهِيَ تَبْقى في المَنْزِلِ طَوالَ اليَوْمِ وَحْدَها. وَمَعَ ذَلِكَ، في أَعْماقِ قَلْبِهِ، لَمْ يَكُنْ عُمَرُ قَلِقًا حَقًّا؛ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ أَيُّ ضَرَرٍ لِأَيٍّ مِنْهُمْ حَتّى الآنَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ حَسَنًا، رُبَّما كانَ قَلِقًا قَليلًا بِسَبَبِ حادِثَةِ الأَرْنَبِ المَيْتِ. فَقَدْ كانَ يَشْعُرُ بِأَنَّ الجِنَّ رُبَّما مِنَ النَّوْعِ الطَّيِّبِ، وَلَكِنْ بَعْدَ حادِثِ الأَرْنَبِ المَيْتِ، لا يُمْكِنُهُ تَوَقُّعُ ما قَدْ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ. لِذا، رُبَّما لَمْ يَكُنْ خائِفًا بِالضَّبْطِ، وَلَكِنَّهُ قَلِقٌ بِما يَكْفي لِمُحاوَلَةِ اتِّخاذِ إِجْراءٍ فَوْرِيٍّ.

قَرَّرَ عُمَرُ أَنْ يَفْعَلَ الشَّيْءَ الوَحيدَ الَّذي فَكَّرَ فيهِ في هَذا الوَقْتِ. إِذْ تَذَكَّرَ أَنَّ هُناكَ طَريقَةً لِطَرْدِ الجِنِّ الأَشْرارِ الَّذين يَسْكُنونَ بَعْضَ المَنازِلِ وَالأَماكِنِ الخالِيَةِ؛ وَهِيَ بِقِراءَةِ السّورَةِ الثّانِيَةِ مِنَ القُرْآنِ؛ «سورَةِ البَقَرَةِ». فَقَدْ كانَ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّهُ سَمِعَ قِصَصًا عَنْ أَشْخاصٍ قاموا بِذَلِكَ وَنَجَحوا. غَيْرَ أَنَّهُ شَعَرَ بِالحاجَةِ إِلى الحُصولِ عَلى مُوافَقَةٍ أَوْ تَأْكيدٍ.

لِذا، ذَهَبَ إِلى الفِناءِ الخَلْفِيِّ وَصَفَرَ لِعَلِيٍّ، ثُمَّ انْتَظَرَ بِقَلَقٍ حَتّى يَتَلَقّى رَدًّا.

بَعْدَ ذَلِكَ، دَخَلَ البَيْتَ لِيَطْلُبَ إِلى سَمَرَ هاتِفَها الجَوّالَ لِلاتِّصالِ بِوالِدِهِ. كانَ عُمَرُ مُتَرَدِّدًا جِدًّا؛ فَأَيُّ عُذْرٍ بِإِمْكانِهِ أَنْ يُقَدِّمَهُ لَها مِنْ دونِ أَنْ يُثيرَ شُكوكَها!؟ كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ أَخْذُ الهاتِفِ وَالتَّحَدُّثُ في خُصوصِيَّةٍ. وَبِالتَّأْكيدِ، سَيَكونُ ذَلِكَ صَعْبًا. لَكِنْ، ما إِنْ

وَقَفَ أَمامَ بابِها وَكانَ عَلى وَشْكِ طَرْقِهِ حَتّى سَمِعَ صَفيرَ عَلِيٍّ.

«أوه، الحَمْدُ لِلّهِ.»

وَعَلى الفَوْرِ، رَكَضَ عُمَرُ إِلى الطّابِقِ السُّفْلِيِّ، وَصَفَرَ مُجَدَّدًا كَإِشارَةِ قَبولٍ. ثُمَّ انْدَفَعَ نَحْوَ البابِ الأَمامِيِّ، وَفَتَحَهُ، وَمَدَّ رَأْسَهُ بَحْثًا عَنْ عَلِيٍّ. وَبِمُجَرَّدِ وُصولِ عَلِيٍّ، ذَهَبا إِلى مَكانِهِما تَحْتَ شَجَرَةِ الياسَمينِ. جَلَسَ عُمَرُ قَريبًا مِنْ عَلِيٍّ، وَبَدَأَ يَهْمِسُ شارِحًا لَهُ فِكْرَتَهُ.



عِنْدَها، ضَرَبَ عَلِيٌّ جَبْهَتَهُ بِراحَةِ يَدِهِ، وَفَتَحَ فَمَهُ، وَحَدَّقَ إِلى عُمَرَ مُتَعَجِّبًا. «هَلْ تَمْزَحُ؟! سَتَسْتَغْرِقُ يَوْمًا كامِلًا لِقِراءَةِ سورَةِ «البَقَرَة» مَرَّةً واحِدَةً، فَما بالُكَ بِثَلاثِ مَرّاتٍ!»

فَأَجابَ عُمَرُ: «لا توجَدُ طَريقَةٌ أُخْرى!»

كانَ هَذا الاقْتِراحُ يَحْتاجُ إِلى تَفْكيرٍ عَميقٍ. وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، بَدَأَ كِلاهُما يَتَصَبَّبانِ عَرَقًا، فَنَهَضا مُجَدَّدًا، وَرَشّا شَجَرَةَ الياسَمينِ وَالجَهَنَّمِيَّةَ بِالماءِ، ثُمَّ أَخْرَجا شَهْبا مِنْ خَلْفِ سِياجِها. كانَ عُمَرُ بِحاجَةٍ إِلى كُلِّ الدَّعْمِ المُمْكِنِ، لِذا جَلَسا وَرَبَطا شَهْبا بِالقُرْبِ مِنْهُما. كَما تَأَكَّدا هَذِهِ المَرَّةَ مِنَ الجُلوسِ مُديرَيْنِ ظَهْرَيْهِما إِلى المَنْزِلِ. إِذْ كانا بِحاجَةٍ إِلى أَنْ يَكونا بَعيدَيْنِ قَدْرَ الإِمْكانِ عَنِ المَنْزِلِ، وَالجِنِّ، وَنَظْراتِ أُمِّهِ القَلِقَةِ. وَبِما أَنَّ الطَّقْسَ كانَ حارًّا، كانَتِ المُكَيِّفاتُ تَعْمَلُ في المَنْزِلِ، وَالنَّوافِذُ مُغْلَقَةً.

«لَكِنْ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقْرَأَها بِصَوْتٍ عالٍ، وَأَنْ أَقْرَأَها جَيِّدًا.»

«وَكَيْفَ سَتَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ دونِ أَنْ يَشُكَّ أَحَدٌ بِأَيِّ شَيْءٍ؟»

«لَسْتُ مُتَأَكِّدًا.»

ظَلَّ الوَلَدانِ صامِتَيْنِ دَقيقَةً، فيما راحَتْ عُيونُهُما تَجولُ في الحَديقَةِ وَكَأَنَّهُما يَبْحَثانِ عَنْ شَيْءٍ. فَجْأَةً، فَتَحَ عُمَرُ عَيْنَيْهِ عَلى اتِّساعِهِما، وَنَظَرَ إِلى عَلِيٍّ، ثُمَّ مالَ نَحْوَهُ قائِلًا:

«عِنْدي فِكْرَةٌ يا عَلِيُّ! يُمْكِنُني أَنْ أَقولَ إِنَّكَ تَحَدَّيْتَني لِأَفْضَلِ تِلاوَةٍ لِهَذِهِ السّورَةِ. وَبِهَذِهِ الطَّريقَةِ، لَنْ يَرْغَبَ أَحَدٌ في أَنْ أَتَوَقَّفَ. بِهَذِهِ الطَّريقَةِ، يُمْكِنُني قِراءَتُها أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِ مَرّاتٍ إِنْ شِئْتُ.»

فَقالَ عَلِيٌّ مُبْتَسِمًا: «حَسَنًا، أَتَحَدّاكَ!»

وَتَصافَحا، وَقالَ عُمَرُ مُبْتَسِمًا: «أَقْبَلُ التَّحَدّي.»

عِنْدَما يَكونُ عُمَرُ في مُهِمَّةٍ فَهُوَ لا يَهْدِرُ الوَقْتَ. لذا، بَعْدَ الغَداءِ مُباشَرَةً، ذَهَبَ إِلى أَخيهِ سَعْدٍ وَطَلَبَ إِلَيْهِ اسْتِخْدامَ مُسَجِّلَتِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلى سَمَرَ لِيَطْلُبَ إِلَيْها أَشْرِطَةَ القُرْآنِ الخاصَّةَ بِسورَةِ «البَقَرَة».

«لِماذا؟ ما الَّذي حَدَثَ لَكَ مُؤَخَّرًا!؟ أَنْتَ لَسْتَ عَلى طَبيعَتِكَ. هَلْ هُناكَ شَيْءٌ تُريدُ أَنْ تُخْبِرَني إِيّاهُ؟ أَنا أُخْتُكَ الكَبيرَةُ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ يُمْكِنُكَ الوُثوقُ بي. أَسْتَطيعُ مُساعَدَتَكَ.»

«أَتَطْرَحينَ عَلَيَّ كُلَّ هذِهِ الأَسْئِلَةِ لِمُجَرَّدِ أَنَّني طَلَبْتُ إِلَيْكِ شَيْئًا بَسيطًا؟ عَلِيٌّ تَحَدّاني، وَأُريدُ فَقَطْ أَنْ أُريهِ مَهارَتي في تِلاوَةِ سورَةِ «البَقَرَة»؛ هَذا كُلُّ ما في الأَمْرِ. لِذا، إِنَّ إِعْطائي أَشْرِطَتَكِ الخاصَّةَ بِسورَةِ «البَقَرَة» هُوَ أَكْبَرُ مُساعَدَةٍ أَحْتاجُ إِلَيْها مِنْكِ.»

ثُمَّ صَمَتَ عُمَرُ لَحْظَةً، فيما ابْتَعَدَتْ سَمَرُ مِنْ دونِ أَنْ تَقولَ شَيْئًا. وَلِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِنَ السَّبَبِ فَقَدْ أَكْمَلَ قائِلًا: «كُنْتِ تُخَطِّطينَ لِلتَّبَرُّعِ بالمُسَجِّلَةِ عَلى أَيِّ حالٍ. لِذا، لَنْ تَحْتاجي إِلى الأَشْرِطَةِ.»

وَما هِيَ إِلّا لَحَظاتٌ حَتّى عادَتْ سَمَرُ وَسَلَّمَتْهُ شَريطَيْ تَسْجيلٍ قائِلَةً: «أَنْتَ مُحِقٌّ. اسْتَمْتِعْ بِالتِّلاوَةِ.»

فَابْتَسَمَ عُمَرُ بِلُطْفٍ، وَقالَ لَها بِأَدَبٍ: «شُكْرًا»، ثُمَّ غادَرَ.

أَخَذَ عُمَرُ المُسَجِّلَةَ والشَّريطَيْنِ، وَرَكَضَ إِلى الطّابِقِ السُّفْلِيِّ. رَتَّبَ كُلَّ شَيْءٍ في المَمَرِّ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلى غُرْفَتِهِ وَتَوَضَّأَ كَما يَفْعَلُ قَبْلَ الصَّلاةِ، وَأَخَذَ نُسْخَةً مِنَ المُصْحَفِ مِنْ غُرْفَتِهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ، عادَ إِلى المَمَرِّ، وَشَغَّلَ الشَّريطَ، وَراحَ يَقْرَأُ بِصَوْتٍ عالٍ، وَالمُصْحَفُ مَفْتوحٌ في حُضْنِهِ.

لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِمّا يَتَوَقَّعُهُ، أَوْ كَيْفَ سَيَعْرِفُ إِنْ كانَتِ الأُمورُ قَدِ انْتَهَتْ.

كانَ الجَميعُ يَتَساءَلونَ عَمّا يَحْدُثُ مَعَهُ، لَكِنَّ الرَّدَّ جاءَ مِنْ سَمَرَ. إِذْ كانَتْ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَلِقٌ بِشَأْنِ المَدْرَسَةِ، وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُريدُ التَّأَكُّدَ مِنْ أَنَّهُ لَنْ يُحْرِجَ نَفْسَهُ عِنْدَما يَذْهَبُ إِلى المَدْرَسَةِ.

وَعِنْدَما عادَ والِدُهُ مِنَ العَمَلِ في وَقْتٍ لاحِقٍ مِنْ بَعْدِ الظُّهْرِ، كانَ عُمَرُ قَدْ شارَفَ عَلى الانْتِهاءِ مِنْ تِلاوَةِ السّورَةِ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ. لَمْ يَقُلْ والِدُهُ شَيْئًا، بَلِ ابْتَسَمَ لَهُ فَحَسبُ ابْتِسامَةً خاصَّةً تُعَبِّرُ عَنِ المُوافَقَةِ، فَشَعَرَ عُمَرُ بِالسَّعادَةِ؛ إِذْ لا بُدَّ أَنَّ والِدَهُ قَدْ خَمَّنَ ما يُخَطِّطُ لَهُ.



تَأَكَّدَ عُمَرُ مِنْ تِلاوَةِ سورَةِ «البَقَرَة» مَعَ القارِئِ الّذي يَصْدُحُ صَوْتُهُ مِنَ المُسَجِّلَةِ. ثُمَّ اسْتَأْنَفَ التِّلاوَةَ لِلْمَرَّةِ الثّالِثَةِ بَعْدَ الغَداءِ. فَالغَداءُ وَجْبَتُهُمُ الرَّئيسَةُ، وَيَتَناوَلونَهُ عادَةً بَيْنَ السّاعَةِ الثّانِيَةِ وَالثّالِثَةِ.

وَأَخيرًا، أَنْهى عُمَرُ تِلاوَةَ سورَةِ البَقَرَةِ ثَلاثَ مَرّاتٍ. يَجِبُ أَنْ يَكونَ هَذا كافِيًا؛ فَقَدِ اسْتَغْرَقَ الأَمْرُ اليَوْمَ بِأَكْمَلِهِ! ثُمَّ انْتَظَرَ إِشاراتٍ تَدُلُّ عَلى أَنَّ الأَمْرَ قَدِ انْتَهى. فَفي إِحْدى القِصَصِ الَّتي سَمِعَها، رَأى بَعْضُ النّاسِ شَخْصًا لا يَعْرِفونَهُ يَظْهَرُ مِنَ العَدَمِ وَيُغادِرُ. وَكانَ عُمَرُ يَأْمَلُ أَلّا يَحْدُثَ ذَلِكَ عِنْدَما تَكونُ أُمُّهُ أَوْ سَمَرُ قُرْبَهُ.

تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَفي اللَّيالي الَّتي تَلَتْها، اسْتَمَرَّتْ أَصْواتُ الضَّجيجِ وَالصَّريرِ، وخاصَّةً في اللَّيْلِ عِنْدَما يَكونُ المَنْزِلُ هادِئًا. وَأَحْيانًا، كانَ عُمَرُ يَسْمَعُ وَقْعَ خُطْواتٍ خَفيفَةٍ وَهُوَ في غُرْفَتِهِ بِجانِبِ المَطْبَخِ.

في وَقْتٍ لاحِقٍ مِنْ ذَلِكَ الأُسْبوعِ، سَأَلَ عَلِيٌّ: «عُمَرُ، أَلا تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَوْ كانَ الأَمْرُ بِهَذِهِ البَساطَةِ لَكانَ أَصْحابُ المَنْزِلِ الأَصْلِيّونَ قَدْ جَرَّبوهُ؟»

«أَنْتَ مُحِقٌّ يا عَلِيُّ. لَكِنْ، كانَ لا بُدَّ لي مِنَ المُحاوَلَةِ.»

تَسْجيلُ عُمَرَ في المَدْرَسَةِ

أَوْشَكَتِ العُطْلَةُ الصَّيْفِيَّةُ عَلى الانْتِهاءِ، فَذَهَبَ عُمَرُ مَعَ والِدِهِ لِلتَّسْجيلِ في مَدْرَسَةِ «العُلا». كانَتِ المَسافَةُ مِنْ مَنْزِلِهِمْ إلى المَدْرَسَةِ لا تَتَجاوَزُ عَشْرَ دَقائِقَ سَيْرًا عَلى الأَقْدامِ. وَرَغْمَ أَنَّ عَلِيًّا حَدَّثَ عُمَرَ كَثيرًا عَنْ مَدْرَسَتِهِ، إِلّا أَنَّ ما رَآهُ كانَ مُخْتَلِفًا تَمامًا عَمّا تَخَيَّلَهُ. فَحينَ قالَ عَلِيٌّ إِنَّها مَدْرَسَةٌ كَبيرَةٌ، لَمْ يُدْرِكْ عُمَرُ أَنَّها ضَخْمَةٌ إِلى هَذِهِ الدَّرَجَةِ: مِئاتُ الصُّفوفِ، صالَةٌ رِياضِيَّةٌ واسِعَةٌ، مُخْتَبَراتٌ، وَمُدَرَّجٌ يَجْتَمِعُ فيهِ المُدَرِّسونَ لِشَرْحِ كُلِّ شَيْءٍ لِلطُّلّابِ الجُدُدِ. وكانَ هُناكَ أَشْخاصٌ كُثُرٌ مُوَزَّعونَ في أَرْجاءِ الصّالَةِ لِمُساعَدَةِ أَيِّ سائِلٍ.



اصْطَحَبَ المُشْرِفونَ عُمَرَ وَمَجْموعَةً مِنَ التَّلاميذِ الجُدُدِ مَعَ آبائِهِمْ في جَوْلَةٍ داخِلَ المَبْنى، الّذي بَدا مِنَ الدّاخِلِ أَكْثَرَ اتِّساعًا مِمّا بَدا عَلَيْهِ مِنَ الخارِجِ. كانَتْ مَحَطَّتُهُمُ الأولى مَكْتَبَةَ المَدْرَسَةِ الّتي اِحْتَوَتْ كُتُبًا تَكْفي لِمَلْءِ كُلِّ غُرَفِ مَدْرَسَةِ عُمَرَ القَديمَةِ. رَأى مَكاتِبَ وَكَراسيَ وَأَرائِكَ، وجِهازَ نَسْخٍ يُشْبِهُ ذاكَ الّذي رَآهُ في المَبْنى الحُكوميِّ في ديسَةَ حينَ رافَقَ والِدَهُ. وَكانَتْ هُناكَ غُرْفَةٌ

اسْمُها «مُخْتَبَرُ اللُّغاتِ» لِتَعْليمِ تِلاوَةِ القُرْآنِ وَاللُّغاتِ الأَجْنَبِيَّةِ. ثُمَّ وَصَلوا إِلى الصّالَةِ الرِّياضِيَّةِ. لَمْ يَسْبِقْ لِعُمَرَ أَنْ رَأى مِنْ قَبْلُ مَكانًا مُغْلَقًا يُمْكِنُ مُمارَسَةُ جَميعِ أَنْواعِ الرِّياضَةِ فيهِ. فالرِّياضَةُ الوَحيدَةُ الّتي كانُوا يُمارِسونَها في مَدْرَسَتِهِ القَديمَةِ كانَتْ كُرَةَ القَدَمِ، وَكانُوا يَلْعَبونَها في المَلْعَبِ؛ سَواءٌ أَكانَ الجَوُّ صَحْوًا أَمْ مُمْطِرًا، صَيْفًا أَمْ شِتاءً. وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ دَرَجَةَ الحَرارَةِ في الخارِجِ كانَتْ تُقارِبُ



أَرْبَعينَ دَرَجَةً مِئَوِيَّةً، إلّا أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِالحَرِّ داخِلَ الصّالَةِ؛ بَلْ كانَ الجَوُّ بارِدًا. الصّالَةُ هُنا كَبيرَةٌ جِدًّا، لِدَرَجَةِ أَنَّها تَتَّسِعُ لِكامِلِ مَدْرَسَتِهِ في ديسةَ! أَمّا الصُّفوفُ فَأَوْسَعُ مِنْ أَيِّ صَفٍّ رَآهُ مِنْ قَبْلُ، وَجُدْرانُها مُغَطّاةٌ بِأَرْفُفٍ مَليئَةٍ بِأَدَواتٍ وَوَسائِلَ تَعْليمِيَّةٍ.

شَعَرَ عُمَرُ أَنَّ المَدْرَسَةَ مَكانٌ جَميلٌ؛ لِدَرَجَةِ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَرْغَبَ في مُغادَرَتِها. وَبَيْنَما هُمْ يَتَجَوَّلونَ فيها، خافَ أَنْ يَضيعَ في مَمَرّاتِها، فَيُضْطَرَّ أَنْ يَقْضِيَ اللَّيْلَ فيها. هِممم، إِنْ حَدَثَ ذَلِكَ فَسَيَلْعَبُ بِجَميعِ التَّجْهيزاتِ كَيْفَما يَشاءُ، وَمِنْ دونِ أَنْ يُزْعِجَهُ أَيُّ جِنِّيٍّ! هَذِهِ الفِكْرَةُ لَيْسَتْ سَيِّئَةً تَمامًا.

وَخِلالَ الجَوْلَةِ شاهَدَ أَشْياءَ كَثيرَةً لَمْ يَرَ مِثْلَها في مَدْرَسَتِهِ في ديسةَ؛ فَظَلَّتْ عَيْناهُ مُتَّسِعَتَيْنِ، وَرُبَّما نَسِيَ أَنْ يَرْمِشَ طيلَةَ الوَقْتِ حَتّى جَفَّتْ عَيْناهُ. إِذْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَفوتَهُ شَيْءٌ، حَتّى إِنَّهُ نَسِيَ أَنَّ والِدَهُ يَمْشي بِجانِبِهِ.

وَفي نِهايَةِ الجَوْلَةِ، طُلِبَ إلى التَّلاميذِ الجُدُدِ اخْتِيارُ التَّسْجيلِ في نَشاطَيْنِ أَوْ نادِيَيْنِ، فَكانَ خِيارُهُ الأَوَّلُ فَريقَ كُرَةِ القَدَمِ. غَيْرَ أَنَّهُ طَلَبَ مُهْلَةً لِيَخْتارَ النَّشاطَ الثّاني؛ رَيْثَما يَتَشاوَرُ مَعَ عَلِيٍّ. وَجَدَ أَنَّ هُناكَ العَديدَ مِنَ الأَنْشِطَةِ؛ كَرُكوبِ الخَيْلِ، وَالسِّباحَةِ، وَكُرَةِ المَضْرِبِ، وَكُرَةِ السَّلَّةِ، وَالتَّصْويرِ الفوتوغْرافِيِّ، وَنادي التَّمْثيلِ، وَنادي الشِّعْرِ، وَالمَسْرَحِ... كانَتِ القائِمَةُ طَويلَةً فَحَيَّرَتْهُ، وَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ سَيَجِدُ وَقْتًا لِلدِّراسَةِ.

راحَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ مُتَأَمِّلًا، فَاكْتَشَفَ سَريعًا أَنَّ مَلابِسَهُ تَخْتَلِفُ عَنْ مَلابِسِ بَقِيَّةِ الصِّبْيانِ. فَبَعْضُهُمْ يَرْتَدي الثَّوبَ الأَبْيَضَ التَّقْليدِيَّ، مَعَ وُجودِ اخْتِلافٍ في القَصَّةِ، وَلَمْ يَضَعوا شَيْئًا عَلى رُؤوسِهِمْ مِثْلَ عُمَرَ.

فيما يَرْتَدي بَعْضُهُمُ الآخَرُ الجينْزَ و«التّيشيرت» فَقَطْ. عِنْدَها، فَهِمَ عُمَرُ سَبَبَ شِراءِ أَخيهِ مَلابِسَ جَديدَةً، وَتَغْييرِهِ قَصَّةَ شَعْرِهِ.

حَتّى إِنَّ طَريقَةَ كَلامِ الأَوْلادِ بَدَتْ مُخْتَلِفَةً. فَصَحيحٌ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمونَ العَرَبِيَّةَ، إِلّا أَنَّهُم يَفْعَلونَ ذَلِكَ بِلَهْجَةٍ غَريبَةٍ قَرَّرَ عُمَرُ أَنَّها لَهْجَةُ «أَهْلِ المَدينَةِ». كانَ يَظُنُّ أَنَّ ديسَةَ هِيَ كُلُّ السُّعودِيَّةِ، ثُمَّ أَدْرَكَ أَنَّها مُجَرَّدُ قَرْيَةٍ صَغيرَةٍ فَقَطْ داخِلَ السُّعودِيَّةِ، وَأَنَّ كَثيرينَ لا يَعْرِفونَ مَوْقِعَها أَصْلًا.

وهَكَذا، شَعَرَ عُمَرُ بِمَزيجٍ مِنَ الخَوْفِ وَالحَماسِ؛ إِذْ إِنَّ الكَثيرَ مِنَ الأَشْياءِ تُفْعَلُ هُنا بِطَريقَةٍ غَيْرِ مَأْلوفَةٍ. لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِمّا يَنْتَظِرُهُ في الأَيّامِ المُقْبِلَةِ، لَكِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ البَقاءَ في الرِّياضِ لَمْ يَعُدْ خِيارًا. لِحُسْنِ حَظِّهِ، عَلِيٌّ في الجِوارِ لِيُساعِدَهُ. وَرَغْمَ ذَلِكَ، ظَلَّ صَوْتُهُ الدّاخِلِيُّ يُقارِنُ بَيْنَ الماضي وَالحاضِرِ، فَصارَ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ يَلْتَفِتَ إِلى أَبيهِ طَلَبًا لِلطُّمَأْنينَةِ. وَلَكِنَّ تَذَكُّرَهُ السِّرَّ الصَّغيرَ الّذي يَتَشارَكُهُ مَعَ أَبيهِ هَدَّأَ قَلَقَهُ، وَسَمَحَ لَهُ بِالاسْتِمْتاعِ بِالتَّجْرِبَةِ.

نَعَمْ، سَتَكونُ مُغامَرَةً جَديدَةً، وَعُمَرُ يُحِبُّ المُغامَراتِ. الآنَ بَدَأَ يَفْهَمُ سَبَبَ رَغْبَةِ أَخيهِ وَأُخْتِهِ في الانْتِقالِ إِلى هُنا؛ فَأَحْيانًا لا تَعْرِفُ ما يَفوتُكَ إِلّا حينَ تُجَرِّبُ شَيْئًا جَديدًا!

اِجْتِماعٌ مُهِمٌّ

عَلى مَدى الأُسْبوعِ التّالي، كانَ عُمَرُ وَعَلِيٌّ يَلْتَقِيانِ كُلَّ يَوْمٍ تَقْريبًا في مَكانِ اجْتِماعِهِما الخاصِّ تَحْتَ المِظَلَّةِ المُغَطّاةِ بِالياسَمينِ وَالجَهَنَّمِيَّةِ، بِجِوارِ شَهْبا. وَنَظَرًا إلى حَرارَةِ الجَوِّ في مُنْتَصَفِ النَّهارِ، كانا يَلْتَقِيانِ حَوالَيِ السّاعَةِ التّاسِعَةِ صَباحًا، فَيَتَناوَلانِ التَّمْرَ، وَيَشْرَبانِ شايَ الأُمِّ الخاصَّ المُحَضَّرَ مَعَ الحَليبِ- الَّذي تَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ بَقَرَتِها- وَالقَليلِ مِنَ الهَيْلِ. وَكُلَّما أَمْكَنَ، كانَ عُمَرُ أَوْ عَلِيٌّ يَجْلِبَ شَيْئًا إضافِيًّا كَوَجْبَةٍ خَفيفَةٍ.

لَكِنَّ اِجْتِماعَ اليَوْمِ كانَ جادًّا جِدًّا؛ فَالمَدْرَسَةُ عَلى الأَبْوابِ، وَمُشْكِلَةُ الجِنِّ لَمْ تُحَلَّ بَعْدُ. لِذا، كانَ مِنَ الضَّروريِّ مُناقَشَةُ المَزيدِ مِنَ الإِجْراءاتِ المُمْكِنَةِ، وَمُحاوَلَةُ حَلِّ المُشْكِلَةِ قَبْلَ بَدْءِ الدِّراسَةِ.

«عُمَرُ، ما الَّذي فَعَلْتُموهُ بِشَأْنِ الغُرَفِ الإِضافِيَّةِ في البَيْتِ؟»

«لا شَيْءَ. إِنَّها مُغْلَقَةٌ وَكَأَنَّها لَيْسَتْ مَوْجودَةً؛ فَأُمّي مَشْغولَةٌ جِدًّا، وَنَحْنُ لا نَحْتاجُ إِلَيْها. لِماذا تَسْأَلُ عَنْها؟»

«رُبَّما كانَ الجِنُّ يُحِبّونَ البَيْتَ لِأَنَّ فيهِ مِساحاتٍ غَيْرَ مُزْعِجَةٍ لَهُمْ.»

«هِمممم... أَنْتَ مُحِقٌّ يا عَلِيُّ. لَمْ أُفَكِّرْ في ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ.»

وَتَحَمَّسَ عُمَرُ كَثيرًا؛ فَرُبَّما هَذِهِ هِيَ نِهايَةُ مُشْكِلَةِ الجِنِّ.

«هُناكَ أَرْبَعُ غُرَفٍ غَيْرُ مُسْتَخْدَمَةٍ. رُبَّما يَجِبُ أَنْ أُبَدِّلَ مَكانَ نَوْمي، وَأَنامَ في كُلٍّ مِنْها بِالتَّناوُبِ.»

«وَكَيْفَ سَتَفْعَلُ ذَلِكَ دونَ إِثارَةِ الشُّكوكِ؟»

«سَأَطْلُبُ إِلى أُمّي... سَأَجِدُ سَبَبًا جَيِّدًا.»

ثُمَّ راحَ عُمَرُ يُفَكِّرُ بِعُمْقٍ؛ إِذْ كانَ يَحْتاجُ إِلى سَبَبٍ وَجيهٍ جِدًّا، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ وَقْتٌ لِيُضَيِّعَهُ. وهكذا، صَمَتَ فَتْرَةً، مُدْرِكًا أَنَّ عَلِيًّا يُراقِبُهُ أَثْناءَ تَفْكيرِهِ. وَلَمْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى شَعَرَ عَلِيٌّ بِالمَلَلِ.

«حَسَنًا عُمَرُ، أَعْتَقِدُ أَنَّ عَلَيَّ الذَّهابَ؛ فَالجَوُّ بَدَأَ يَسْخُنُ.»

«حَسَنًا. رُبَّما كانَ الشّايُ السّاخِنُ هُوَ السَّبَبُ؛ إِذْ يَجْعَلُكَ تَتَعَرَّقُ أَحْيانًا. سَأُخْبِرُكَ بِما سَأَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ.»

وما إِنْ غادَرَ عَلِيٌّ، حَتّى خَطَرَتْ لِعُمَرَ فِكْرَةٌ، فَذَهَبَ فَوْرًا إِلى أُمِّهِ. كانَتْ جالِسَةً في الصّالَةِ مَعَ سَمَرَ، تَتَصَفَّحُ مَجَلَّةً حَصَلَتْ عَلَيْها مِنْ أُمِّ عَلِيٍّ، فيما سَمَرُ مَشْغولَةٌ بِهاتِفِها المَحْمولِ وَهِيَ تُدَرْدِشُ مَعَ صَديقاتِها مِنْ ديسَةَ. جَلَسَ عُمَرُ بِجِوارِ أُمِّهِ وَكَأَنَّهُ مُهْتَمٌّ بِما كانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَكانَتِ الصَّفْحَةُ المَفْتوحَةُ تَعْرِضُ بَعْضَ الوَصْفاتِ.

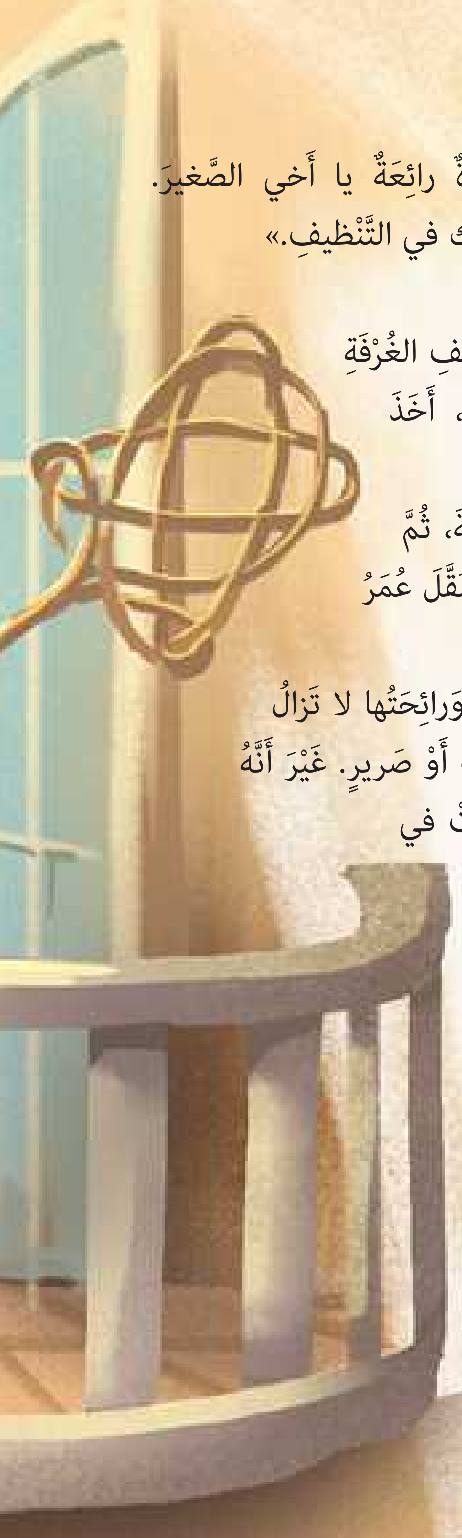
«مُنْذُ متى وَأَنْتَ مُهْتَمٌّ بِوَصْفاتِ الطَّعامِ؟»

«في الواقِعِ، جِئْتُ لِأَطْلُبَ إِذْنًا لِلِانْتِقالِ إِلى إِحْدى الغُرَفِ في الطّابِقِ العُلْوِيِّ.»

وَعَلى الفَوْرِ، أَغْلَقَتْ أُمُّهُ المَجَلَّةَ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ مُبْتَسِمَةً؛ فَشَجَّعَتْهُ هَذِهِ الابْتِسامَةُ عَلى الاسْتِمْرارِ.

«لَكِنَّني أَحْتاجُ إِلى تَجْرِبَةِ كُلِّ الغُرَفِ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ أُقَرِّرَ أَيًّا مِنْها سَأَخْتارُ.»

لِدَهْشَتِهِ، رَحَّبَتْ والِدَتُهُ بِالفِكْرَةِ مِنْ دونِ أَيِّ جِدالٍ؛ وَكَأَنَّها كانَتْ تَنْتَظِرُ أَنْ يَطْلُبَ إِلَيْها ذَلِكَ. وَلَكِنَّها قالَتْ لَهُ: «تَذَكَّرْ يا عُمَرُ، إِذا اسْتَخْدَمْتَ غُرْفَةً فَسَتُصْبِحُ مَسْؤولًا عَنْ تَنْظيفِها. لَنْ تَكونَ لي عَلاقَةٌ بِتِلْكَ الغُرَفِ.»



«سَأَفْعَلُ يا أُمّي. أَعِدُكِ.»

أَغْلَقَتْ سَمَرُ هاتِفَها وَقالَتْ: «فِكْرَةٌ رائِعَةٌ يا أَخي الصَّغيرَ. وَلِأُرَحِّبَ بِكَ في الطّابِقِ الثّاني، سَأُساعِدُكَ في التَّنْظيفِ.»

فَابْتَسَمَ عُمَرُ وَقالَ: «اتَّفَقْنا.»

بَدَأَتِ الجَوْلَةُ؛ فَقامَ عُمَرُ وَسَمَرُ بِتَنْظيفِ الغُرْفَةِ الأولى. وَمِنْ غُرْفَتِهِ المُجاوِرَةِ لِلْمَطْبَخِ، أَخَذَ وِسادَتَهُ وَبَطّانِيَّتَهُ فَقَطْ.

وَفي اليَوْمِ التّالي، نَظَّفا الغُرْفَةَ التّالِيَةَ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَيْها بِبَطّانِيَّتِهِ وَوِسادَتِهِ. وَهَكَذا، تَنَقَّلَ عُمَرُ بَيْنَ الغُرَفِ الأَرْبَعِ.

كانَتِ الغُرَفُ هادِئَةً جِدًّا في اللَّيْلِ، وَرائِحَتُها لا تَزالُ مُغْبَرَةً قَليلًا. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ أَيَّ أَصْواتٍ أَوْ صَريرٍ. غَيْرَ أَنَّهُ كانَتْ هُناكَ مُشْكِلَتانِ؛ الأولى أَنَّها لَيْسَتْ في الطّابِقِ الأَرْضِيِّ. وَلَكِنْ بِمُجَرَّدِ دُخولِهِ الغُرْفَةَ وَإِغْلاقِهِ السَّتائِرَ، لا تَعودُ لِذَلِكَ أَهَمِّيَّةٌ كَبيرَةٌ. وَالمُشْكِلَةُ الثّانِيَةُ هِيَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكانِهِ رُؤْيَةُ شَهْبا أَوْ سَماعُها. أَمّا الجانِبُ الإيجابِيُّ في الأَمْرِ فَهُوَ أَنَّ وُجودَهُ في الطّابِقِ الثّاني أَتاحَ لَهُ رُؤْيَةَ مِساحَةٍ أَكْبَرَ وَأَبْعَدَ في الحَديقَةِ، وَرُؤْيَةَ المَدْخَلِ الأَمامِيِّ مِنْ إِحْدى الغُرَفِ.

لَمْ يَكُنْ هُناكَ الكَثيرُ لِيُخْبِرَ بِهِ عَلِيًّا في الأَيّامِ التّالِيَةِ.



«كَيْفَ تَشْعُرُ وَأَنْتَ تَنامُ في الطّابِقِ الثّاني؟»

«لا أُمانِعُ الآنَ طالَما أَنَّني في مُهِمَّةٍ لِإِبْعادِ الجِنِّ، وَمَنْعِهِمْ مِنَ الانْتِشارِ أَكْثَرَ في البَيْتِ. لا أُريدُهُمْ أَنْ يَشْعُروا أَنَّ بِإِمْكانِهِمُ الاسْتِقْرارَ هُناكَ.»

«حَسَنًا، بِما أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هادِئٌ، فَرُبَّما نَجَحْتَ في طَرْدِهِمْ!»

«لَيْتَني فَعَلْتُ! وَلَكِنَّ عَشاءَ أَبي تَمَّ العَبَثُ بِهِ لَيْلَةَ البارِحَةِ في المَطْبَخِ.»

«أَلَمْ تُلاحِظْ أَنَّهُمْ يَسْتَهْدِفونَ عَشاءَ والِدِكَ دائِمًا؟ أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ لا يُحِبّونَهُ لِأَنَّهُ أَحْضَرَكُمْ لِلْعَيْشِ في ما يُعِدّونَهُ بَيْتَهُمْ.»

«أَوْ رُبَّما هُمْ فَقَطْ يُحِبّونَ الخُضْرَواتِ. لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ حَتّى أَنَّ الجِنَّ يَسْتَطيعونَ الأَكْلَ!»

كانَتِ الغُرَفُ الهادِئَةُ تَمْنَحُ عُمَرَ وَقْتًا لِلتَّفْكيرِ. رُبَّما الجِنُّ لا يُحِبّونَ هَذِهِ الغُرَفَ أَصْلًا. لَكِنْ، لِماذا؟



حاوَلَ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ أَدِلَّةٍ في الغُرَفِ، عَنْ شَيْءٍ مَخْفِيٍّ أَوْ مُخَبَّأ في مَكانٍ ما؟ فَالتَّوَصُّلُ إِلى أَيِّ مَعْلومَةٍ قَدْ يُساعِدُهُ في اكْتِشافِ أَسْرارٍ عَنِ الجِنِّ في هذا البَيْتِ.

اسْتَمَرَّ عُمَرُ وَعَلِيٌّ في مُناقَشَةِ ما تَوَصَّلا إِلَيْهِ مِنَ اسْتِنْتاجاتٍ جَديدَةٍ. فَفي الظّاهِرِ، تَبْدو الغُرَفُ عادِيَّةً.

وَلَكِنْ، ما السِّرُّ المَخْفِيُّ فيها؟ لَمْ يَنْسَ عُمَرُ أَنْ يَكْتُبَ ذَلِكَ عَلى وَرَقَتِهِ الَّتي باتَتْ مُتَجَعِّدَةً الآنَ، وَلَزِجَةً قَليلًا بِسَبَبِ اتِّساخِ أَصابِعِهِ عِنْدَما كانَ يَأْكُلُ التَّمْرَ. فَقَدِ احْتَفَظَ بِها مَعَهُ طَوالَ الوَقْتِ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِمُشارَكَتِها مَعَ أَحَدٍ، وَلا حَتّى مَعَ عَلِيٍّ. عَلى الأَقَلِّ، لَيْسَ بَعْدُ. وَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ يُخْفيها دائِمًا في أَحَدِ جُيوبِهِ وَلا يَتْرُكُها في غُرْفَتِهِ أَبَدًا.



عُمَرُ لا يَقْبَلُ الاسْتِسْلامَ

كانَ عُمَرُ يَعْلَمُ أَنَّ أُمَّهُ تَشْعُرُ بِعَدَمِ الارْتِياحِ بِسَبَبِ ذَهابِ الجَميعِ إِلى المَدْرَسَةِ، كَما يَعْلَمُ أَنَّها تَشْتَبِهُ الآنَ بِأَنَّ البَيْتَ مَسْكونٌ بِالفِعْلِ. غَيْرَ أَنَّ حِيَلَ عُمَرَ لِطَرْدِ الجِنِّ مِنَ البَيْتِ بَدَأَتْ تَنْفُدُ، وَكَذَلِكَ الأَعْذارَ الّتي يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَها لِأُمِّهِ. أَمّا والِدُهُ فَلَمْ يَكُنْ يُقَدِّمُ الكَثيرَ مِنَ المُساعَدَةِ؛ لِأَنَّهُ كانَ مَشْغولًا في العَمَلِ طَوالَ اليَوْمِ.

أَخيرًا تَحَقَّقَ حُلْمُ سَمَرَ عِنْدَما تَمَّ قَبولُها في جامِعَةِ المَلِك سعود. وَبِما أَنَّها كانَتْ مَشْغولَةً بِالتَّحْضيرِ لِلْجامِعَةِ، فَقَدْ قَلَّ اهْتِمامُها بِالمَنْزِلِ وَما يَدورُ فيهِ. كَما لمْ يَكُنْ لَدَيْها وَقْتٌ ولا رَغْبَةٌ في تَعَلُّمِ قِيادَةِ السَّيّارَةِ؛ حَيْثُ كانَتْ لَدَيْها أُمورٌ أَهَمُّ تَشْغَلُها وَتَسْتَحِقُّ صَرْفَ مالِها عَلَيْها. وكَذَلِكَ سَعْدٌ تَمَّ قَبولُهُ في جامِعَةِ المَلِكِ سعود، لَكِنَّ أَكْثَرَ ما أَسْعَدَهُ هُوَ حُصولُهُ عَلى رُخْصَةِ القِيادَةِ. وسَمَحَ لَهُ والِدُهُ بِقِيادَةِ الشّاحِنَةِ «البيك أب» لِأَخْذِ أُمِّهِ لِلتَّسَوُّقِ. وأَصْبَحَ لَدَيْهِ العَديدُ مِنَ الأَصْدِقاءِ، فَصارَ يُرَدِّدُ بِاسْتِمْرارٍ: «وُلِدْتُ لِأَكونَ ابْنَ المَدينَةِ!» كَما قَرَّرَ العَمَلَ بِدَوامٍ جُزْئِيٍّ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ شِراءِ المَلابِسِ الَّتي يَرْتَديها أَبْناءُ المَدينَةِ. حتَّى إِنَّهُ حَصَلَ عَلى قَصَّةِ شَعْرٍ جَديدَةٍ، وَقامَ بِتَحْديدِ لِحْيَتِهِ لِتَبْدُوَ كَلِحى أَبْناءِ المَدينَةِ. وَلَمْ يَكُنْ يُمانِعُ إِنِ انْتَقَلَتِ الأُسْرَةُ بِأَكْمَلِها إِلى ديسَةَ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ الاعْتِمادُ عَلى نَفْسِهِ، وَلَدَيْهِ بِالفِعْلِ أَصْدِقاءُ يَدْعونَهُ لِلانْتِقالِ وَالعَيْشِ مَعَهُمْ.

وَبِالإِضافَةِ إِلى قِيادَتِهِ شاحِنَةَ أَبيهِ لَدى اصْطِحابِهِ أُمَّهُ لِلتَّسَوُّقِ، وافَقَ والِدُهُ عَلى أَنْ يَذْهَبَ سَعْدٌ بِشاحِنَتِهِ إِلى الجامِعَةِ بَعْدَ أَنْ

يوصِلَهُ إلى العَمَلِ؛ إذْ يَذْهَبُ والِدُهُ إلى عَمَلِهِ مُبْكِرًا، وَهُوَ لَيْسَ بَعيدًا عَنِ المَنْزِلِ. كانَتِ الأُمورُ تَسيرُ عَلى ما يُرامُ بِالنِّسْبَةِ إلى أَخيهِ وَأُخْتِهِ وَوالِدِهِ، لَكِنَّ المُحافَظَةَ عَلى السِّرِّ كانَتْ تُزْعِجُ عُمَرَ. فَهُوَ يَعْرِفُ ما هُوَ عَلى المِحَكِّ، وَيَعْرِفُ كَمْ سَيَخْسَرُ والِدُهُ. وَقَدْ شَعَرَ بِالذَّنْبِ قَليلًا لِأَنَّ والِدَهُ اخْتارَ هَذا المَكانَ الواسِعَ لِإِرْضائِهِ بِإِحْضارِ شَهْبا، وَرُبَّما لِيَكونَ بِالإِمْكانِ إِحْضارُ حَيواناتِهِ الأُخْرى مِنَ المَنْزِلِ في ديسَةَ. كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إذا قَرَّرَتْ أُمُّهُ العَوْدَةَ إلى ديسَةَ، فَسَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الذَّهابُ مَعَها. في الماضي، كانَتْ هذِهِ أُمْنِيَتَهُ. وَلَكِنِ الآنَ، بَعْدَ أَنْ رَأى ما يَنْتَظِرُهُ في المَدينَةِ، وفي المَدْرَسَةِ، فَهُوَ غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لِلْعَوْدَةِ بَعْدُ، لَيْسَ الآنَ.

ماذا لَوْ قَرَّرَ والِدُهُ أَنْ يَعيشَ في المَدينَةِ، وَلَكِنَّهُ اسْتَأْجَرَ شُقَّةً لِنَفْسِهِ فَقَطْ بَيْنَما يَعودُ هُوَ وَأُمُّهُ إلى المَنْزِلِ في ديسَةَ؟ لَوْ حَصَلَ ذَلِكَ فَسَتَكونُ نِهايَةَ العالَمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ. إذْ سَيَكونُ لَدَيْهِ الكَثيرُ لِيَخْسَرَهُ مِثْلَ والِدِهِ، وَسَيُضْطَرُّ إلى الابْتِعادِ عَنْ هَذا الحَيِّ؛ وعَنْ عَلِيٍّ وَالمَدْرَسَةِ الرّائِعَةِ، وَهذا المَنْزِلِ الرّائِعِ؛ سَواءٌ أَكانَ مَسْكونًا أَمْ لا. لِذَلِكَ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا!

جَلَسَ عُمَرُ عَلى السَّجّادَةِ في وَسَطِ غُرْفَتِهِ، وَأَضافَ المَزيدَ مِنَ المُلاحَظاتِ إلى الوَرَقَةِ المُجَعَّدَةِ الّتي يَحْتَفِظُ بِها دائِمًا. كانَ يَنْقُلُها مِنْ جَيْبٍ إلى آخَرَ كُلَّما غَيَّرَ مَلابِسَهُ. وَما كانَ يَكْتُبُهُ عَلَيْها إِنَّما هُوَ مَعْلوماتٌ هامَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِسِرِّ البَيْتِ وَالجِنِّ؛ فَمُلاحَظاتُهُ أَدِلَّةٌ مُهِمَّةٌ. وَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ، دَخَل عَلِيٌّ مِنَ المَطْبَخِ بِكُلِّ هُدوءٍ، وَراقَبَهُ لِبَعْضِ الوَقْتِ مُحاوِلًا فَهْمَ ما يَحْدُثُ. لاحَظَ عُمَرُ وُجودَ صَديقِهِ وَلَمْ يُمانِعْ. وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَقُلْ شَيْئًا لِلتَّرْحيبِ بِهِ؛ إذْ كانَ مُنْشَغِلًا بِأَفْكارِهِ. وَبَعْدَ

قَليلٍ، عِنْدَما صارَ مُسْتَعِدًّا لِمُشارَكَتِهِ ما تَوَصَّلَ إِلَيْهِ، ضَرَبَ بِراحَتِهِ عَلى السَّجّادَةِ لِيَطْلُبَ إِلى عَلِيٍّ الجُلوسَ بِالقُرْبِ مِنْهُ.

«عَلِيُّ، لَدَيَّ خُطَّةٌ!»

«خُطَّةٌ!»

«أَعْتَقِدُ أَنَّني قَدِ اكْتَشَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ!»

«ماذا تَقْصِدُ؟»

«انْظُرْ...»

صَمَتَ عُمَرُ بِضْعَ ثَوانٍ وَهُوَ يَفْرِكُ جَبْهَتَهُ، بَيْنَما اسْتَمَرَّ في دِراسَةِ الوَرَقَةِ. «لَقَدْ كُنْتُ أَضَعُ عَلاماتٍ عَلى الغُرَفِ كُلَّما قالَ أَحَدُهُمْ إِنَّهُ سَمِعَ أَصْواتًا... وَحَتّى الآنَ، تَصْدُرُ الأَصْواتُ مِنَ المَطْبَخِ فَقَطْ. وَغُرْفَتي هُنا في الطّابِقِ السُّفْلِيِّ مُجاوِرَةٌ لِلْمَطْبَخِ، وَغُرْفَةُ سَمَرَ تَقَعُ فَوْقَ المَطْبَخِ، وكَذَلِكَ حَمّامُها.»

«إِذًا، ماذا تَقْصِدُ؟»

«لا أَعْلَمُ بِالتَّأْكيدِ. لَكِنَّ تَخْميني، وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ تَخْمينٍ، بَلْ أَنا مُتَأَكِّدٌ، تَقْريبًا مُتَأَكِّدٌ... حَسَنًا، لَدَيَّ هذا الشُّعورُ.»

«عُمَرُ، كَلامُكَ لَيْسَ مَفْهومًا.»

«حَسَنًا...» اقْتَرَبَ عُمَرُ مِنْ عَلِيٍّ وَهَمَسَ: «بِكُلِّ تَأْكيدٍ، هُناكَ شَيْءٌ يَزْحَفُ داخِلَ هَذا الجِدارِ.»





وَأَشارَ عُمَرُ إِلى الجِدارِ المُشْتَرَكِ بَيْنَ غُرْفَتِهِ والمَطْبَخِ.

«إِنَّهُ الجِدارُ نَفْسُهُ الَّذي يَمْتَدُّ إِلى غُرْفَةِ سَمَرَ وَحَمّامِها.»

«هَلْ تَقْصِدُ أَنَّ هُناكَ شَيْئًا أَوْ شَخْصًا يَخْتَبِئُ هُنا؟»

«السُّؤالُ الآنَ: مَنْ؟ أَوْ ماذا؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ ثُعْبانًا؟ ثُعْبانًا كَبيرًا يَمْتَدُّ عَلى طولِ الجِدارِ؟» أَكْمَلَ عُمَرُ شَرْحَ اسْتِنْتاجاتِهِ، فَتَقَوْقَعَ عَلِيٌّ عَلى نَفْسِهِ، وَجَذَبَ رُكْبَتَيْهِ نَحْوَ صَدْرِهِ.

«حَسَنًا، الطَّريقَةُ الوَحيدَةُ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ ذَلِكَ هِيَ الدُّخولُ...»



وَعَلى الفَوْرِ، تَحَرَّكَ عَلِيٌّ لا إِرادِيًّا مُبْتَعِدًا عَنِ الجِدارِ، وَسَأَلَ: «الدُّخولُ إِلى الجِدارِ! مَنْ؟ وَكَيْفَ؟»

«رَأَيْتُ مَرَّةً فيلْمًا عَنْ سَجينٍ حَفَرَ في الجِدارِ مُحاوِلًا الهُروبَ، وَ...»

«أَتَعْني أَنَّهُ قَدْ يَكونُ هُناكَ شَخْصٌ مُخْتَبِئٌ في الجِدارِ؟ لَدَيْكَ خَيالٌ واسِعٌ يا عُمَرُ!»

«لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ، بَلْ أَنْتَ الَّذي قُلْتَ...»

«حَسَنًا، إِذًا ما الَّذي تَقْصِدُهُ؟»

«أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَبْدَأَ بِالحَفْرِ في الجِدارِ؛ وَلَكِنْ عِنْدَما يَكونُ الجَميعُ خارِجَ المَنْزِلِ أَوْ نائِمينَ.»

«لا أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ يا عُمَرُ. فَمِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ تُحافِظَ عَلى المَنْزِلِ لا أَنْ تُدَمِّرَهُ. وَبِالإِضافَةِ إِلى ذَلِكَ، قَدْ يَكونُ ذَلِكَ خَطيرًا جِدًّا.»

«يَجِبُ أَنْ أُثْبِتَ نَظَرِيَّتي أَوَّلًا، ثُمَّ يُمْكِنُني إِشْراكُ أَبي.»

«ماذا لَوْ...»

«سَنَقْلَقُ بِشَأْنِ ذَلِكَ عِنْدَما يَحينُ الوَقْتُ...»

«لا أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ يا عُمَرُ.»

«حَسَنًا، لَدَيَّ فِكْرَةٌ. يُمْكِنُنا الاسْتِماعُ إِلى الجِدارِ بِاسْتِخْدامِ كوبٍ... ثُمَّ تَحْديدُ المَكانِ الّذي يَكونُ فيهِ الصَّوْتُ أَعْلى.»

«هَذِهِ الفِكْرَةُ أَحْسَنُ.»

وَهَكَذا، ذَهَبا إِلى المَطْبَخِ وَأَخَذا كوبَيْنِ زُجاجِيَّيْنِ. وَبِما أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَحَدٌ في المَطْبَخِ، بَدَأا بِالاسْتِماعِ. فَعَلا الشَّيْءَ نَفْسَهُ عَلى كُلِّ الجُدْرانِ في المَنْزِلِ؛ في الطّابِقِ العُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ. وَأَخَذَ عُمَرُ

قَلَمًا وَوَضَعَ عَلامَةَ X عَلى الجِدارِ كُلَّما سَمِعا صَوْتًا، ثُمَّ عادا إِلى غُرْفَةِ عُمَرَ لِلتَّشاوُرِ وَالنِّقاشِ.

«إِذًا، عُمَرُ، ما رَأْيُكَ؟»

«هِممم... هَلْ سَمِعْتَ أَيَّ شَخْصٍ يَتَحَدَّثُ؟ هَلْ سَمِعْتَ صَوْتَ بَشَرٍ؟»

«عُمَرُ، إِذا كانَ هُناكَ رَجُلٌ صَغيرٌ في الدّاخِلِ، فَلَنْ يَتَحَدَّثَ إِلى نَفْسِهِ!»

«بِالضَّبْطِ. وَإِذا كانَ ثُعْبانًا فَلَنْ يُصْدِرَ ضَوْضاءَ عالِيَةً أَيْضًا.»

«إِذًا... ما الَّذي تُحاوِلُ قَوْلَهُ؟»

فَارْتَبَكَ عُمَرُ قَليلًا ثُمَّ قالَ: «عَلِيُّ، نَحْنُ لا نَعْرِفُ كَيْفَ تَبْدو أَصْواتُ الجِنِّ. وَلَكِنَّني أَعْرِفُ أَنَّهُ يُمْكِنُهُمُ المُرورُ عَبْرَ الجُدْرانِ. لِذا، إِذا كانَ هُناكَ جِنٌّ فَلِماذا هُمْ داخِلَ الجِدارِ؟ وَلا أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ...»

«نَعَمْ، أَنْتَ مُحِقٌّ يا عُمَرُ. لَنْ يُصْدِروا ضَوْضاءَ أَثْناءَ تَحَرُّكِهِمْ هُناكَ!»

«ما سَمِعْتُهُ بَدا وَكَأَنَّهُ شَيْءٌ يَزْحَفُ في مَكانٍ ضَيِّقٍ. حَسَنًا، رُبَّما هو أَكْثَرُ مِنْ شَيْءٍ واحِدٍ، وَإِلّا فَلا بُدَّ أَنْ يَكونَ طَويييلًا...»

وَتَوَقَّفَ عُمَرُ عَنِ الكَلامِ عِنْدَما رَأَى عَيْنَيْ عَلِيٍّ وَفَمَهُ تَتَّسِعُ تَدْريجِيًّا.

قَرارُ أُمّي

لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ ضَجيجٍ أَوْ حَرَكَةٍ في المَطْبَخِ في ذَلِكَ الصَّباحِ. فَعَلى ما يَبْدو، كانَتْ أُمّي قَلِقَةً جِدًّا، فَلَمْ تُفَكِّرْ في إِعْدادِ الفَطورِ، بَلْ وَقَفَتْ في الصّالَةِ، وَدَعَتِ العائِلَةَ بِأَكْمَلِها إِلى اِجْتِماعٍ مُهِمٍّ جِدًّا. وَعَلى الفَوْرِ، تَجَمَّعَ الجَميعُ حَوْلَ أُمّي الّتي جَلَسَتْ عَلى الأَريكَةِ، فيما جَلَسَ والِدي عَلى الكُرْسِيِّ المُجاوِرِ لَها. كانَ الجَوُّ مَشْحونًا، وَبَدا واضِحًا أَنَّ الأَمْرَ جِدِّيٌّ. وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ هُناكَ مُتَّسَعٌ لِلْجَميعِ عَلى الأَريكَةِ إِلّا أَنَّ أَحَدًا مِنّا لَمْ يَجْرُؤْ عَلى



الجُلوسِ بِالقُرْبِ مِنْ أُمّي... إِذْ بَدَتْ مُنْزَعِجَةً جِدًّا، وَغَيْرَ مُسْتَعِدَّةٍ لِأَيِّ نِقاشٍ. لَقَدِ اتَّخَذَتْ قَرارَها! حَتّى والِدي لَنْ يَسْتَطيعَ إِقْناعَها عِنْدَما تَكونُ في هَذِهِ الحالَةِ.

بَدَأَتْ أُمّي بِالحَديثِ: «لا أَعْتَقِدُ أَنَّ ما سَأَقولُهُ سَيَكونُ مُفاجِئًا لِأَيٍّ مِنْكُمْ. كُنْتُ مُتَسامِحَةً لِلْغايَةِ، وَحَصَلْتُمْ جَميعًا عَلى ما أَرَدْتُموهُ. وَلِإِرْضائِكُمْ تَنازَلَ والِدُكُمْ، وَغَيَّرَ حَياتَهُ. وَلَكِنْ، لا يُمْكِنُني الاسْتِمْرارُ في العَيْشِ هُنا. فَالحَياةُ في المَدينَةِ لَمْ تُعْجِبْني، وَلَنْ تَكونَ مُناسِبَةً لي. كُنْتُ مُسْتَعِدَّةً لِتَجْرِبَتِها، لَكِنَّ الفَتْرَةَ الماضِيَةَ لَمْ تَكُنْ سَهْلَةً. فَأَنا لا أَسْتَطيعُ العَيْشَ في مَكانٍ يَحْدُثُ فيهِ الكَثيرُ مِنَ الأَشْياءِ الَّتي لا أَسْتَطيعُ تَفْسيرَها.»



غَرِقَ عُمَرُ في أَفْكارِهِ، بَيْنَما تابَعَتْ أُمُّهُ كَلامَها... هِيَ مُحِقَّةٌ، لَكِنْ ما الَّذي تَنْوي فِعْلَهُ؟ وَكَيْفَ سَيُؤَثِّرُ ذَلِكَ عَلَيَّ؟ لا أَسْتَطيعُ تَخَيُّلَ العَوْدَةِ إلى ديسَةَ الآنَ. لا أَسْتَطيعُ العَوْدَةَ، لا أَسْتَطيعُ!

وفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، قاطَعَتْ أُمُّهُ أَفْكارَهُ بِقَوْلِها: «لِذَلِكَ، أَعْتَقِدُ أَنَّ الوَحيدَيْنِ اللَّذَيْنِ لَمْ يَرْغَبا في المَجيءِ في المَقامِ الأَوَّلِ، لَكِنَّهُما لَمْ يَعْتَرِضا عَلى أَحْلامِكُمْ، هُما عُمَرُ وَأَنا.»

مَرَّةً أُخْرى، لَمْ يَسْتَطِعْ عُمَرُ إِلّا أَنْ يُفَكِّرَ في سِرِّهِ: لاااااا! لاااااا! أَعْتَقِدُ أَنَّني كُنْتُ مَشْغولًا جِدًّا بِالحِفاظِ عَلى سِرِّنا الصَّغيرِ عَنِ البَيْتِ لِدَرَجَةِ أَنَّني نَسيتُ أَنْ أَجْعَلَها تُدْرِكُ كَمْ أَحْبَبْتُ هَذا المَكانَ.

لَكِنَّ هذا بِالتَّأْكيدِ لَيْسَ الوَقْتَ أَوِ المَكانَ المُناسِبَ لِيَقولَ عُمَرُ أَيَّ شَيْءٍ.

كانَ والِدُهُ صامِتًا طَوالَ الوَقْتِ، وَلَكِنَّهُ يَبْدو حَزينًا. وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ المُعْتادِ أَلّا تَكونَ لَهُ الكَلِمَةُ الأَخيرَةُ، إِلّا أَنَّهُ اكْتَفى بِالجُلوسِ هُناكَ وَالاسْتِماعِ إِلى أُمِّ عُمَرَ، مُتَجَنِّبًا التَّواصُلَ مَعَها بَصَرِيًّا. كانَ يَنْظُرُ إِلَيْنا جَميعًا بِالطَّريقَةِ نَفْسِها.

هَلْ هَذا هُوَ الوَقْتُ المُناسِبُ لِلْكَشْفِ عَنِ السِّرِّ؟ هَلْ سَيُساعِدُ ذَلِكَ؟ كانَ عُمَرُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَمْلِكُ مِفْتاحَ السِّرِّ؛ فَوالِدُهُ هَوَ مَنْ يَمْتَلِكُهُ، وَسَبَقَ لَهُ أَنْ وَعَدَهُ بِالحِفاظِ عَلَيْهِ. وَبِالإِضافَةِ إِلى ذَلِكَ، إِنْ أَفْشى السِّرَّ فَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَزيدَ الأُمورَ سوءًا؛ إِذْ إِنَّ والِدَهُ هُوَ مَنْ سَيَتَحَمَّلُ النَّتيجَةَ، وَسَتَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ التَّضْحِيَةُ. فَقَدْ جاءَ والِدُهُ إِلى هُنا مِنْ أَجْلِهِ، وسَيَخْسَرُ الكَثيرَ إِذا اضْطُرّوا إِلى الرَّحيلِ. وَكانَ عُمَرُ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِذا انْكَشَفَ السِّرُّ، فَلَنْ تَرْغَبَ سَمَرُ في العَيْشِ هُنا. إِنَّ الكَشْفَ عَنْهُ سَيَزيدُ الأُمورَ سوءًا في هَذِهِ المَرْحَلَةِ!

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلى الجَميعِ؛ إِذْ لَمْ يُفاجِئْهُمْ كَلامُ أُمِّهِمْ؛ بَلْ كانوا يَتَوَقَّعونَ حُدوثَ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَطَعَ والِدُهُ حَبْلَ الصَّمْتِ بِقَوْلِهِ: «هذا صَحيحٌ، فَقَدِ اتَّخَذْتُ هذا القَرارَ عَلى أَمَلِ إِرْضاءِ الجَميعِ. وَلَكِنْ، مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَرارًا حَكيمًا. أَعْتَقِدُ أَنَّنا بِحاجَةٍ إِلى مَنْحِ أَنْفُسِنا فُرْصَةً، وَالانْتِظارِ بِضْعَةِ أَسابيعَ؛ إِلى أَنْ تَبْدَأَ المَدْرَسَةُ، ثُمَّ سَنَعْقِدُ اجْتِماعًا آخَرَ.»

إِشْراكُ الأَبِ

بَعْدَ خِطابِ أُمِّهِ، عَلِمَ عُمَرُ أَنَّ لا وَقْتَ لَدَيْهِ لِيُضَيِّعَهُ، فَدَرَسَ نَظَرِيَّتَهُ عَنِ الجِدارِ المَسْكونِ في المَطْبَخِ مَرَّةً أُخْرى، وَقَرَّرَ مُشارَكَتَها مَعَ والِدِهِ. لِذا، انْتَظَرَ ذَهابَ سَمَرَ وَأُمِّهِ لِلتَّسَوُّقِ مَعَ سَعْدٍ، ثُمَّ انْتَظَرَ عَوْدَةَ والِدِهِ إِلى المَنْزِلِ بَعْدَ الظُّهْرِ. ظَلَّ يُراقِبُ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَتِهِ بِانْتِظارِ اللَّحْظَةِ المِثالِيَّةِ لِيَكونَ بِمُفْرَدِهِ مَعَ والِدِهِ.

وَما إِنْ دَخَلَ والِدُهُ حَتّى مَلَأَ عُمَرُ كوبًا بِماءٍ بارِدٍ مِنَ الزّيرِ في الخارِجِ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ والِدَهُ يُحِبُّ هذا الماءَ، ثُمَّ طَرَقَ بابَ غُرْفَتِهِ.

«سَأَخْرُجُ بَعْدَ دَقيقَةٍ يا عُمَرُ.»

وَعِنْدَما خَرَجَ والِدُهُ، أَعْطاهُ عُمَرُ كَأْسَ الماءِ، وَقَبَّلَ رَأْسَهُ كَما يَفْعَلُ عادَةً، ثُمَّ قالَ بِسُرْعَةٍ: «أَبي، أَعْتَقِدُ أَنَّني حَلَلْتُ لُغْزَ الأَصْواتِ الغَريبَةِ الَّتي كانَ الجَميعُ يَسْمَعونَها.»





«حَسَنًا يا صَديقيَ الحَكيمَ... كُلّي آذانٌ صاغِيَةٌ... لَقَدْ حانَ الوَقْتُ لِفِعْلِ شَيْءٍ ما؛ فَأُمُّكَ وَسَمَرُ في غايَةِ التَّوَتُّرِ، وَقَدْ نَفَدَتْ مِنّي الأَعْذارُ وَالتَّفْسيراتُ، وَما عادَتا تُصَدِّقانِ عُذْرَ ضَوْضاءِ المَدينَةِ.»

«تَعالَ يا أَبي، دَعْني أُرِكَ... الآنَ، بِما أَنَّ أُمّي وَسَمَرَ قَدْ خَرَجَتا لِلتَّسَوُّقِ.»

أَخَذَ عُمَرُ والِدَهُ إِلى المَطْبَخِ، وَأَشارَ إِلى عَلامَةِ X عَلى الجِدارِ قائِلًا:

«انْظُرْ إِلى هَذِهِ العَلامَةِ، هُناكَ مِثْلُها في غُرْفَتي وَغُرْفَةِ سَمَرَ وَحَمّامِها.»

«مَنْ وَضَعَ هَذِهِ العَلاماتِ؟ وَلِماذا؟»

«أَنا وَعَلِيٌّ. وَضَعْنا عَلامَةَ X كُلَّما سَمِعْنا صَوْتًا في الجِدارِ.»

«حَسَنًا، أَكْمِلْ، أَنا أَسْتَمِعْ.»

«بِما أَنَّ جَميعَ العَلاماتِ عَلى الجِدارِ نَفْسِهِ... وَفي الجُزْءِ الخَلْفِيِّ مِنَ المَنْزِلِ، فَهذا يَعْني شَيْئًا واحِدًا فَقَطْ!»

«هَذِهِ نُقْطَةٌ جَيِّدَةٌ جِدًّا؛ فَأَنا لَمْ أَسْمَعْ أَيَّ شَيْءٍ في غُرْفَتِنا، وَهِيَ تُواجِهُ المَدْخَلَ الأَمامِيَّ. لَكِنْ، ما الَّذي يَعْنيهِ هذا في رَأْيِكَ؟»

«سَأَلْتُ والِدَ عَلِيٍّ عَنِ الوَقْتِ الَّذي انْتَقَلَ فيهِ المالِكونَ الأَوائِلُ مِنَ المَنْزِلِ...»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، جَلَسَ والِدُ عُمَرَ عَلى كُرْسِيٍّ قُرْبَ طاوِلَةِ المَطْبَخِ، وَأَشارَ إِلى عُمَرَ بِالجُلوسِ قائِلًا:

«حَسَنًا، أَكْمِلْ.»

«أَخْبَرَني عَلِيٌّ ذاتَ مَرَّةٍ أَنَّ عَدَدًا مِنَ الأَرانِبِ الَّتي يَمْلِكونَها قَدِ اخْتَفى مِنَ القَفَصِ، لِذا اضْطُرّوا إِلى وَضْعِ طَبَقَةٍ مِنَ الإِسْمَنْتِ عَلى

الأَرْضِ لِمَنْعِ ما بَقِيَ مِنْها مِنَ الهَرَبِ.»

«هَلْ تَقْصِدُ أَنَّهُ قَدْ تكونُ هُناكَ أَرانِبُ تَحْفِرُ في جُدْرانِنا... وَأَنَّ المَنْزِلَ قَدْ لا يَكونُ مَسْكونًا في النِّهايَةِ؟!»

«حَسَنًا يا أَبي، تَذَكَّرْ أَنَّنا وَجَدْنا الأَرْنَبَ المَيْتَ خَلْفَ الثَّلّاجَةِ...»

فَأَمالَ والِدُهُ رَأْسَهُ مُفَكِّرًا ثُمَّ قالَ: «رُبَّما مَضَغَ الأَرْنَبُ السِّلْكَ وَصُعِقَ بِالكَهْرُباءِ، وَرُبَّما لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ حاوَلَ افْتِراسَهُ.»

«نَظَرِيَّةُ الأَرْنَبِ مَنْطِقِيَّةٌ جِدًّا، أَلا تَعْتَقِدُ ذَلِكَ؟ لَكِنَّنا لا نَزالُ غَيْرَ مُتَأَكِّدينَ. وَإِذا أَخْبَرْنا أُمّي وَسَمَرَ، ثُمَّ اتَّضَحَ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ...»

«لِذا، يَجِبُ أَنْ نَحْتَفِظَ بِالسِّرِّ حَتّى نَتَأَكَّدَ. وَلَكِنْ كَيْفَ؟»

«الطَّريقَةُ الوَحيدَةُ لِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ هِيَ حَفْرُ حُفْرَةٍ في الجِدارِ يا أَبي.»

«لَكِنْ عُمَرُ، ماذا لَوْ كانَ هُناكَ ثُعْبانٌ في الجِدارِ؟ لا يُمْكِنُنا فِعْلُ ذَلِكَ.»

«لَدَيَّ فِكْرَةٌ رائِعَةٌ! ما رَأْيُكَ أَنْ تَذْهَبَ أَنْتَ وَأُمّي إِلى مَكَّةَ لِأَداءِ العُمْرَةِ؟ عِنْدَها سَتَظُنُّ أَنَّكَ مُوافِقٌ عَلى فِكْرَةِ رَحيلِها، وَسَأَطْلُبُ إِلى سَعْدٍ وَعَلِيٍّ مُساعَدَتي في حَفْرِ الجِدارِ.»

«لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّ سَعْدًا سَيُحِبُّ ذَلِكَ... دَعْنا نُبْقِهِ خارِجَ هذا الأَمْرِ...»

«إِذًا، هَلْ سَنَسْتَمِرُّ في إِبْقائِهِ سِرَّنا الصَّغيرَ؟!»

«بِما أَنَّ قِيادَةَ سَعْدٍ أَصْبَحَتْ أَفْضَلَ بِكَثيرٍ، فَسَأَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ أُمَّكَ وَسَمَرَ إِلى مَكَّةَ لِأَداءِ العُمْرَةِ هذا الأُسْبوعَ؛ سَيُساعِدُها ذَلِكَ عَلى الهُدوءِ، وَسَأَقولُ إِنَّني سَأَكونُ مَشْغولًا.»

«رائِعٌ! سَنَقْضي عُطْلَةَ نِهايَةِ الأُسْبوعِ مَعًا مَرَّةً أُخْرى... أُحِبُّ ذَلِكَ

يا أَبي، سَيَكونُ الأمرُ مُمْتِعًا... تَعْلَمُ أَنَّني أُحِبُّ القِيامَ بِأَشْياءَ مَعَكَ؛ حَتّى لَوْ كانَ ذَلِكَ يَعْني الحَفْرَ في الجُدْرانِ الَّتي قَدْ تَكونُ مَخْبَأً لِلْأَرانِبِ... أَوِ... الثَّعابينِ.»

«عَمَلٌ جَيِّدٌ يا بُنَيَّ.»

«عِنْدَما يَنْتَهي كُلُّ هذا، هَلْ يُمْكِنُني أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ يَوْمًا إِلى المَزْرَعَةِ لِأَرى الجِمالَ الَّتي تَهْتَمُّ بِها؟»

«بِالتَّأْكيدِ... هُنالِكَ دائِمًا مَكانٌ لِلرِّجالِ الكِبارِ بِأَفْكارِهِمُ العَبْقَرِيَّةِ.»



تَنْفيذُ الخُطَّةِ

ذَهَبَ عُمَرُ مَعَ والِدِهِ إِلى مَخْزَنِ القَبْوِ. كانَ مُغْبَرًا، وَلَكِنَّهُ أَبْرَدُ مِنْ باقي البَيْتِ. أَخْرَجا الأَدواتِ الَّتي اسْتَخْدَماها لِبناءِ المَرافِقِ لِلْحَيَوانات في الحَديقَةِ الخَلْفِيَّةِ، ثُمَّ ذَهَبا إِلى المَطْبَخِ، حَيْثُ كانَ عَلِيٌّ وَوالِدُهُ يَنْتَظِرانِ. كانَ عَلَيْهِمْ تَنْفيذُ الخُطَّةِ!

قالَ والِدُ عُمَرَ لِوالِدِ عَلِيٍّ: «بِما أَنَّ هَذِهِ الأَرانِبَ رُبَّما تَخُصُّك، أَقْتَرِحُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَجَوَّلَ في الحَديقَةِ مَعَ عَلِيٍّ وَتَجِدا الفُتْحاتِ المُخْتَلِفَةَ الَّتي تَسْتَخْدِمُها الأَرانِبُ لِلدُّخولِ وَالخُروجِ. مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُحْضِرَ بَعْضَ الأَكْياسِ أَوْ شَيْئًا ما لِالْتِقاطِ الأَرانِبِ عِنْدَما تُحاوِلُ الهَرَبَ.»

«نَعَمْ، لَدَيَّ أَرْبَعَةُ أَكْياسٍ قُماشِيَّةٌ وَبَعْضُ الأَقْفاصِ. سَأَتْرُكُ مَعَكَ أَحَدَ الأَكْياسِ؛ في حالِ لَمْ تَكُنِ الأُمورُ كَما نَتَوَقَّعُ! تَعْرِفُ ما أَعْنيهِ... لا تُريدُه أَنْ يَزْحَفَ إِلى داخِلِ المَنْزِلِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟» قالَ والِدُ عَلِيٍّ.

عِنْدَها، بَدا القَلَقُ عَلى وُجوهِ الجَميعِ، بِاسْتِثْناءِ عُمَرَ. إِذْ كانَ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّ نَظَرِيَّتَهُ صَحيحَةٌ. وَلَكِنْ، لا ضَرَرَ في تَوَخّي الحَذَرِ. رَفَعَ عُمَرُ كَتِفَهُ، وَأَخَذَ كيسَ القُماشِ الكاكِيَّ الَّذي يُسْتَخْدَمُ عادَةً لِجَمْعِ التَّمْرِ مِنْ والِدِ عَلِيٍّ. كانَ يَأْمَلُ أَلّا يَضَعَ ثُعْبانًا فيهِ.

أَكَّدَ عَلَيْهِمُ الأَبُ: «عَلَيْنا أَنْ نُسْرِعَ، فَلا يَزالُ عَلَيْنا تَنْظيفُ الفَوْضى... إِذْ لا يَنْبَغي أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ شَيْئًا عَنْ هذا، هَلِ اتَّفَقْنا؟»

«أَبي، هَلْ يُمْكِنُني أَنْ أَبْدَأَ؟ هَذا سَيَكونُ مُمْتِعًا جِدًّا.»

«انْتَظِرْ قَليلاً.»



أَعْطى الأَبُ والِدَ عَلِيٍّ وَابْنَهُ عَشْرَ دَقائِقَ لِيَبْحَثا وَيَكونا مُسْتَعِدَّيْنِ. وَفي هَذِهِ الأَثْناءِ، وَضَعا الماءَ في الإِبْريقِ لِإِعْدادِ بَعْضِ الشّايِ، ثُمَّ بَدَأا بِالضَّرْبِ عَلى جِدارِ المَطْبَخِ حَيْثُ وَضَعَ عُمَرُ العَلاماتِ، وَبَدَأا بِكَسْرِهِ بِالفَأْسِ.

«عُمَرُ، أَعْتَقِدُ أَنَّ هذا كافٍ.»

وَكانَ عُمَرُ قَدْ أَحْدَثَ فُتْحَةً بِحَجْمِ المِسْطَرَةِ تَقْريبًا، بِشَكْلٍ رَأْسِيٍّ وَأُفُقِيٍّ.

«لَكِنْ، لِماذا لا يَخْرُجُ شَيْءٌ؟ رُبَّما أَخَفْناها. لا بُدَّ أَنَّ لَدَيْها مَخْرَجًا آخَرَ. أَتَمَنّى أَنْ تَكونَ أَرانِبَ فَقَطْ.»

«اِحْذَرْ يا عُمَرُ! فَأَنْتَ لا تَعْرِفُ ما يوجَدُ في الدّاخِلِ!»

لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ الأَبُ جُمْلَتَهُ، كانَتْ يَدُ عُمَرَ داخِلَ الفُتْحَةِ في الجِدارِ! شَعَرَ بِشَيْءٍ ما، وَكانَ هُناكَ الكَثيرُ مِنَ الوَرَقِ المُمَزَّقِ، بِالإِضافَةِ إِلى شَيْءٍ ناعِمٍ وَلَزِجٍ.

«انْظُرْ يا أَبي، انْظُرْ! كُنْتُ أَعْلَمُ ذَلِكَ...! كانَ حَدْسي صَحيحًا...! كُنْتُ واثِقًا مِنْ ذَلِكَ طَوالَ الوَقْتِ...! هَذِهِ فَضَلاتُ أَرانِبَ!» وَوَجَّهَ عُمَرُ راحَةَ يَدِهِ المَفْتوحَةَ نَحْوَ والِدِهِ لِيَعْرِضَ لَهُ ما أَخْرَجَهُ مِنْ داخِلِ الجِدارِ.

تَخَيَّلْ كَيْفَ كانَ شُعورُ عُمَرَ! لَمْ يَكُنْ مَلْمَسُ الفَضَلاتِ مُقَزِّزًا عَلى الإِطْلاقِ، بَلْ عَلى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، كانَ سَعيدًا وَمُتَحَمِّسًا وَفَخورًا.

«سَأَذْهَبُ لِمُساعَدَةِ عَلِيٍّ وَلِأُبَشِّرَهُ بِالخَبَرِ.»

رَكَضَ عُمَرُ إِلى الخارِجِ، فَوَجَدَ عَلِيًّا يَنْتَظِرُ، وَبِجانِبِهِ كيسُ قُماشٍ رَمادِيٌّ عَلى الأَرْضِ، يُمْسِكُهُ بِإِحْكامٍ. وكانَ والِدُهُ عَلى بُعْدِ حَوالَي عَشَرَةِ أَمْتارٍ، ويَفْعَلُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ. بِالتَّأْكيدِ هُناكَ شَيْءٌ يَتَحَرَّكُ في كِلا الكيسَيْنِ.





«إِذًا، أَنْتَ تَعْرِفُ بِالفِعْلِ...»

«نَعَمْ، انْظُرْ إِلى الكيسِ.» كانَ الوَلَدانِ مُتَحَمِّسَيْنِ لِلْغايَةِ. لَمْ يَكُنْ عَدَدُ الأَرانِبِ الَّتي سَيَصْطادونَها واضِحًا، لَكِنْ كانَ مِنَ المُطَمْئِنِ مَعْرِفَةُ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُناكَ ثَعابينُ. ثُمَّ هُرِعَ عُمَرُ عائِدًا إِلى المَطْبَخِ لِيَرى إِنْ كانَ هُناكَ شَيْءٌ يُمْكِنُهُ فِعْلُهُ. وَعِنْدَما وَصَلَ، وَجَدَ أَنَّ والِدَهُ قَدْ أَمْسَكَ بِأَرْنَبَيْنِ وَوَضَعَهُما في الكيسِ.

بَعْدَ حَوالَي ساعَةٍ، عادَ عَلِيٌّ وَوالِدُهُ إِلى المَطْبَخِ. كانَ كُلٌّ مِنْهُما قَدْ أَمْسَكَ بِأَرْبَعَةِ أَرانِبَ، وَمَعَ الأَرْنَبَيْنِ اللَّذَيْنِ أَمْسَكَ بِهِما والِدُهُ، أَصْبَحَ المَجْموعُ عَشَرَةً. هَلْ هُناكَ المَزيدُ؟

«حَسَنًا، كَما اتَّفَقْنا أَيُّها الشّابّانِ، هَذا الأَمْرُ سَيَبْقى سِرًّا... لا تَتَفَوَّها بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ...» ذَكَّرَهُما والِدُ عُمَرَ، فَقالَ عَلِيٌّ: «أَعِدُكَ.»

وَقالَ عُمَرُ: «أَعِدُكَ يا أَبي.»

«حَسنًا، سَأَذْهَبُ لِأَجِدَ شَخْصًا لِمَلْءِ الفُتْحَةِ وَإِصْلاحِ الجِدارِ.»

وَقالَ والِدُ عَلِيٍّ: «وَأَنا سَأَخْرُجُ لِأَبْحَثَ عَنِ المَزيدِ مِنَ الأَرانِبِ؟»

فيما قالَ عُمَرُ: «سَأَنْتَظِرُ هُنا حَتّى تَعودَ. مَنْ يَدْري؟ قَدْ أَجِدُ المَزيدَ.» أَمّا عَلِيٌّ فَأَخَذَ مِلْعَقَةً خَشَبِيَّةً كَبيرَةً، وَبَدَأَ بِالضَّرْبِ عَلى الجِدارِ. وَصَعِدَ عُمَرُ إِلى غُرْفَةِ سَمَرَ لِيَضْرِبَ عَلى الجِدارِ هُناكَ أَيْضًا، ثُمَّ عادَ إِلى المَطْبَخِ. وَبَعْدَها، خَرَجَ عُمَرُ وَعَلِيٌّ إِلى الخارِجِ، وَبَحَثا في المِنْطَقَةِ بِأَكْمَلِها، فلاحَظَ عَلِيٌّ وُجودَ فُتْحَةٍ في الأَرْضِ تَمْتَدُّ مِنَ الحَديقَةِ إِلى جِدارِ المَطْبَخِ الَّذي يَبْدو أَنَّهُ كانَ مَكانًا لِمِدْفَأَةٍ تَمَّ إِلْغاؤُها. اِنْتَظَرَ الجَميعُ هُناكَ، وَضَرَبوا عَلى الجُدْرانِ، وَانْتَظَروا، وَلَكِنْ لَمْ يَخْرُجِ المَزيدُ مِنَ الأَرانِبِ. حاوَلوا أَيْضًا البَحْثَ داخِلَ الفُتْحاتِ، وَلَكِنْ لا شَيْءَ. عِنْدَها، قَرَّرَ عُمَرُ أَنَّهُ يَجِبُ إِغْلاقُ الفُتْحاتِ. وَهَكَذا، أَغْلَقوا الفُتْحَةَ المُؤَدِّيَةَ مِنَ الحَديقَةِ إِلى المَطْبَخِ بِوِعاءٍ مَعْدِنِيٍّ، ثُمَّ أَغْلَقوا الفُتْحَةَ الَّتي أَحْدَثوها في جِدارِ المَطْبَخِ بِصينِيَّةٍ، وَأَسْنَدوا عَلَيْها كُرْسِيًّا لِتَثْبيتِها في مَكانِها. تَوَقَّفَتِ الأَصْواتُ الَّتي في الجِدارِ، وَكَذَلِكَ الحَرَكَةُ الَّتي كانُوا يَسْمَعونَها داخِلَ جِدارِ المَطْبَخِ. اسْتَمَعُوا جَيِّدًا، وَاسْتَمَعُوا بِاسْتِخْدامِ الأَكْوابِ عَلى الجِدارِ. كانُوا مُتَأَكِّدينَ مِنْ عَدَمِ وُجودِ المَزيدِ مِنَ الأَرانِبِ هُناكَ.



وَفي وَقْتٍ لاحِقٍ مِنْ بَعْدِ الظُّهْرِ، عادَ الأَبُ وَمَعَهُ البَنّاءُ الَّذي سارَعَ إِلى أَخْذِ القِياساتِ، وَتَحَقَّقَ مِنْ لَوْنِ الطِّلاءِ، ثُمَّ غادَرَ. وَبَيْنَما كانُوا بِانْتِظارِ عَوْدَةِ البَنّاءِ، خَرَجَ عُمَرُ وَوالِدُهُ لِلْبَحْثِ عَنِ المَزيدِ مِنَ الفُتْحاتِ. سَدَّ والِدُ عَلِيٍّ إِحْدى الفُتْحاتِ بِبَعْضِ الصُّخورِ، وَتَناوَبَ هُوَ وَعَلِيٌّ عَلى شُرْبِ الشّايِ وَأَكْلِ الكَعْكِ الَّذي أَحْضَرَهُ عَلِيٌّ مِنَ المَنْزِلِ.

وَلَمّا اقْتَرَبَ المَساءُ، وَبَدَأَ الجَوُّ يَبْرُدُ، كانَ الجَميعُ مُبْتَهِجينَ. إِذْ كانُوا قَدْ أَمْسَكُوا بِحَوالَي ثَمانِيَةَ عَشَرَ أَرْنَبًا كَبيرًا وَثَلاثَةِ أَرانِبَ صَغيرَةٍ!

«رُبَّما هَرَبَتِ الأَرانِبُ الباقِيَةُ عَبْرَ فُتْحاتٍ أُخْرى.» تَوَصَّلَ عُمَرُ إِلى هذا الرَّأْيِ، وَتابَعَ: «عَلَيْنا أَنْ نَمْلَأَ المَدْخَلَ الَّذي تَسْتَخْدِمُهُ بِالإِسْمَنْتِ وَنَسُدَّهُ حَتّى لا يَتَكَرَّرَ هذا الأَمْرُ.»

وَعَلى الفَوْرِ، بَدَأَ عُمَرُ وَعَلِيٌّ بِالحَفْرِ في مِنْطَقَةِ الزُّهورِ خارِجَ المَطْبَخِ حَتّى وَجَدا الأَنْفاقَ الَّتي صَنَعَتْها الأَرانِبُ. وَبَعْدَ قَليلٍ، رَنَّ جَرَسُ البابِ، وَكانَ القادِمُ هُوَ البَنّاءَ، وَمَعَهُ رَجُلٌ آخَرُ لِمُساعَدَتِهِ في إِنْهاءِ العَمَلِ بِسُرْعَةٍ. أَدْخَلَهُما والِدُ عُمَرَ إِلى المَطْبَخِ، فيما أَرْشَدَهُما عُمَرُ إِلى الفُتْحَةِ في الخارِجِ. كانا سَريعَيْنِ، وَخِلالَ ساعَةٍ واحِدَةٍ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ؛ فَقَدْ تَمَّ إِغْلاقُ الجِدارِ بِالإِسْمَنْتِ. وَقالَ الرَّجُلُ إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتّى يَجِفَّ الإِسْمَنْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الطِّلاءِ. كَما تَوَجَّبَ عَلَيْهِمُ الانْتِظارُ أَيْضًا رَيْثَما يَجِفُّ الإِسْمَنْتُ في الحَديقَةِ، لِيكونَ بِالإِمْكانِ تَغْطِيَةُ الأَرْضِ بِالتُّرْبَةِ وَإِعادَةُ زِراعَتِها. لِذا، قَرَّرَ عُمَرُ وَضْعَ الزُّهورِ داخِلَ المَنْزِلِ، وَاسْتَخْدَمَ كُلَّ الحاوِياتِ وَالمِزْهَرِيّاتِ الَّتي وَجَدَها، وَوَضَعَ بَعْضَها في المَطْبَخِ، وَأُخْرى في الصّالَةِ.

في اليَوْمِ التّالي، اتَّصَلَتْ أُمُّ عُمَرَ بِزَوْجِها لِتُخْبِرَهُ بِأَنَّهُمْ في طَريقِ الْعَوْدَةِ. وَكانَتْ هَذِهِ المُكالَمَةُ بِمَثابَةِ إِنْذارٍ لَهُمْ بِأَنَّ لَدَيْهِمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ساعَةً فَقَطْ.

كانَ الدَّهّانُ قَدْ أَنْهى عَمَلَهُ لِلتَّوِّ وَغادَرَ، فَأَعادوا بِسُرْعَةٍ كُلَّ شَيْءٍ إِلى مَكانِهِ، وَفَتَحوا النَّوافِذَ وَبابَ المَطْبَخِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ رائِحَةِ الطِّلاءِ. وَعِنْدَ المَساءِ، أَشْعَلوا بَعْضَ الفَحْمِ، وَوَضَعوا عَلَيْهِ العودَ المُفَضَّلَ لَدى الأُمِّ لِتَبْخيرِ المَنْزِلِ، وَلِإِخْفاءِ أَيِّ أَثَرٍ مُتَبَقٍّ مِنْ رائِحَةِ الطِّلاءِ. كانَ عُمَرُ مُتَحَمِّسًا، وَقالَ: «سَتَظُنُّ أُمّي أَنَّ هَذِهِ مُفاجَأَةٌ خاصَّةٌ لِلتَّرْحيبِ بِها بَعْدَ عَوْدَتِها مِنَ العُمْرَةِ.»



هَلِ انْتَهى الأَمْرُ حَقًّا؟

عادَتِ الأُمُّ وَسَمَرُ وَسَعْدُ مِنْ مَكَّةَ، وَكانوا مُتْعَبينَ لِلْغايَةِ مِنَ الرِّحْلَةِ الطَّويلَةِ الَّتي اسْتَغْرَقَتْ 12 ساعَةً في كِلا الاتِّجاهَيْنِ، وَمِنَ المَشْيِ أَثْناءَ الطَّوافِ وَالسَّعْيِ. وَلِذَلِكَ، بِمُجَرَّدِ وُصولِهِمْ، وَضَعَتِ الأُمُّ رَأْسَها عَلى الوِسادَةِ، وَنامَتْ نَوْمًا طَويلًا وَهادِئًا وَمُريحًا. وَعِنْدَما اسْتَيْقَظَتْ في الصَّباحِ الباكِرِ، وَجَدَتِ الصّالَةَ وَطاوِلَةَ المَطْبَخِ وَطاوِلَةَ القَهْوَةِ في غُرْفَةِ العائِلَةِ مَليئَةً بِالزُّهورِ الجَميلَةِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ إِلّا أَنْ تَبْتَسِمَ، وَبَدَأَتْ تُغَنّي. وَبِما أَنَّها كانَتْ تُدَنْدِنُ بَعْضَ الأَغاني الَّتي اعْتادَتِ الاسْتِماعَ إِلَيْها في ديسَةَ، بدا واضِحًا أَنَّها سَعيدَةٌ؛ فَقَدْ عادَتْ إِلى طَبيعَتِها. وَهَكَذا، اسْتَيْقَظَ الجَميعُ عَلى رائِحَةِ «المَراصيعِ» التَّقْليدِيَّةِ المُغَطّاةِ بِالعَسَلِ وَالزُّبْدَةِ، وَالّتي تُشْبِهُ حَبّاتِ «البانْكيك» الصَّغيرَةَ.

وَفي الأَيّامِ التّالِيَةِ، أَصْبَحَتِ الحَياةُ جَميلَةً وَهادِئَةً وَخالِيَةً مِنَ المَشاكِلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَعُدْ لَدى الأُمِّ ما تَشْتَكي مِنْهُ.

وَعِنْدَما عادَتْ سَمَرُ مِنَ الجامِعَةِ، كانَ لَدَيْها أَخيرًا مَوْضوعٌ آخَرُ يُمْكِنُها التَّحَدُّثُ عَنْهُ مَعَ والِدَتِها غَيْرَ الأَصْواتِ الغَريبَةِ. فَقَدْ وَصَفَتْ لَها كَيْفَ كانَتِ الفَتَياتُ مُخْتَلِفاتٍ؛ في طَريقَةِ حَديثِهِنَّ وَمَشْيِهِنَّ وَحَتّى في طَريقَةِ لِبْسِهِنَّ، وَأَخْبَرَتْها أَنَّها بِحاجَةٍ إِلى تَغْييرِ مَلابِسِها وَتَسْريحَةِ شَعْرِها.

وَهَكَذا، اتَّفَقَ عُمَرُ وَوالِدُهُ عَلى أَنْ يَحْتَفِظا بِهَذا السِّرِّ الصَّغيرِ بَيْنَهُما في الوَقْتِ الحالِيِّ؛ إِلى أَنْ يُقَرِّرا ما سَيُخْبِرانِ

بِهِ المالِكَ. لَكِنَّ عُمَرَ لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِنَ المُدَّةِ الَّتي سَيَتَمَكَّنانِ فيها مِنَ الحِفاظِ عَلى هَذا السِّرِّ؛ إِذْ كانَ يَخْشى أَنْ تَسْمَعَ سَمَرُ شَيْئًا عَنْ هَذا البَيْتِ مِنْ زَميلاتِها في الجامِعَةِ. إِلّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ ما يُزْعِجُ عُمَرَ حَقًّا، فَما كانَ يُقْلِقُهُ فِعْلًا هُوَ ما قَدْ يَحْدُثُ إِذا عَلِمَ المالِكُ أَنَّ المَنْزِلَ لَمْ يَكُنْ مَسْكونًا أَصْلًا.

وَقَدْ كانَ مُحِقًّا؛ فَهَذِهِ الأُمورُ لا تَبْقى في الخَفاءِ. إِذْ لَمْ يَسْتَغْرِقِ الأَمْرُ وَقْتًا طَويلًا؛ فَسُرْعانَ ما اتَّصَلَ المالِكُ بِوالِدِهِ، وَطَلَبَ رُؤْيَتَهُ خِلالَ عُطْلَةِ نِهايَةِ الأُسْبوعِ. فَطَلَبَ الأَبُ إِلى عُمَرَ أَنْ يُرافِقَهُ إِذا أَرادَ. وَبِالتَّأْكيدِ، كانَ المَوْضوعُ مُقْلِقًا.

وَفي طَريقِهِما إِلى بَيْتِ الدُّكْتورِ أَحْمَدَ، بَقِيَ الأَبُ وَعُمَرُ صامِتَيْنِ، بَيْنَما كانَ الأَبُ يَقودُ السَّيّارَةَ. فَتَحَ لَهُما الدُّكْتورُ أَحْمَدُ البابَ لِيَدْخُلا، وَاسْتَقْبَلَهُما بِكَلِماتِ تَرْحيبٍ حارَّةٍ.

«كَيْفَ حالُ «فيلَّتي» الجَميلَةِ؟ هَلْ أَنْتُمْ مُسْتَمْتِعونَ هُناكَ؟»

فَرَدَّ والِدي بِحِكْمَةٍ: «نَعَمْ، كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ. كانَتْ هُناكَ بَعْضُ المَشاكِلِ لَكِنَّنا نَتَعَلَّمُ التَّكَيُّفَ مَعَها.»

«هِممم... سَمِعْتُ أَنَّكَ أَحْضَرْتَ بَنّاءً وَدَهّانًا، وَقاما بِبَعْضِ الأَعْمالِ هُناكَ. هَلْ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ؟»

«نَعَمْ. كانَتْ لَدَيْنا أَرانِبُ تُسَبِّبُ بَعْضَ المَشاكِلِ في البَيْتِ، لِذا تَوَجَّبَ عَلَيْنا التَّعامُلُ مَعَها.»

ظَلَّ عُمَرُ صامِتًا طَوالَ الوَقْتِ، يَسْتَمِعُ فَقَطْ، وَشَعَرَ بِفَخْرٍ شَديدٍ بِوالِدِهِ الّذي رَدَّ عَلى السُّؤالِ بِذَكاءٍ، وَقالَ الحَقيقَةَ في الوَقْتِ نَفْسِهِ؛ كَعَهْدِهِ دائِمًا. لَمْ يَقُلْ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يَنْبَغي لَهُ قَوْلُهُ. وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلا



القَهْوَةَ وَالشّايَ، وَتَبادَلا مَعَ المالِكِ بَعْضَ الأَحاديثِ القَصيرَةِ، عادا إلى المَنْزِلِ.

في الطَّريقِ، بَدا القَلَقُ بِوُضوحٍ عَلى وَجْهِ والِدِهِ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِالرَّغْبَةِ في تَبادُلِ الأَحاديثِ؛ فَأَدْرَكَ عُمَرُ أَنَّ هُناكَ ما يُزْعِجُهُ.

وَسَأَلَهُ: «ما الأَمْرُ يا أَبي؟»

«أُريدُ التَّأَكُّدَ فَقَطْ مِنْ أَنَّ ما قالَهُ لِيَ المالِكُ شَفَهِيًّا في لِقائِنا

الأَوَّلِ مَكْتوبٌ في العَقْدِ. إِذْ كُنْتُ مُنْدَهِشًا في ذَلِكَ اليَوْمِ، وَمَرَّ كُلُّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ، فَوَقَّعْتُ مِنْ دونِ قِراءَةِ العَقْدِ كامِلًا. لَقَدْ وَثِقْتُ بِكَلامِهِ فَقَطْ.»

وَهَكَذا، أَوَّلُ شَيْءٍ فَعَلَهُ الأَبُ عِنْدَما وَصَلا إِلى المَنْزِلِ هُوَ الذَّهابُ إِلى غُرْفَتِهِ، وَتَبِعَهُ عُمَرُ. وَعَلى الفَوْرِ، أَخْرَجَ الأَبُ العَقْدَ الَّذي وَقَّعَهُ، وَمَرَّ عَلَيْهِ بِإِصْبَعِهِ سَريعًا حَتّى وَصَلَ إِلى بَنْدٍ مَكْتوبٍ فيهِ:

8- إِذا طَلَبَ المالِكُ إِلى المُسْتَأْجِرِ إِخْلاءَ العَقارِ في أَيِّ وَقْتٍ قَبْلَ انْتِهاءِ السَّنَتَيْنِ، فَسَيَتَعَيَّنُ عَلى المالِكِ تَعْويضُ المُسْتَأْجِرِ بِمَنْحِهِ بيتًا جَديدًا ذا قيمَةٍ مَقْبولَةٍ في المَدينَةِ نَفْسِها كَهَدِيَّةٍ.

كانَتْ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ مَصْدَرَ ارْتِياحٍ لَهُما مَعًا.

«إِذًا، لَنْ يَطْلُبَ إِلَيْنا المُغادَرَةَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ في هَذِه الحالِ، هَلْ مِنَ المُناسِبِ أَنْ نُبَلِّغَ المالِكَ؟»

فَجاءَ رَدُّ والِدِهِ: «في الوَقْتِ المُناسِبِ، وَلَكِنْ لَيْسَ الآنَ.»

زِيارَةُ الأَبِ

أَصْبَحَتِ الأُمُّ بِخَيْرٍ بَعْدَ عَوْدَتِها إِلى بَرْنامَجِها اليَوْمِيِّ المُعْتادِ مِنْ دونِ مُفاجَآتٍ؛ فَنَسِيَتِ التَّهْديدَ الَّذي أَطْلَقَتْهُ بِالعَوْدَةِ إِلى ديسَةَ، وَبَدَأَتْ بِتَبادُلِ الزِّياراتِ مَعَ والِدَةِ عَلِيٍّ مِنْ حينٍ لِآخَرَ. وَكانَ لِعُمَرَ جَدْوَلٌ يَوْمِيٌّ مُنْتَظِمٌ؛ فَهُوَ يَعودُ إِلى المَنْزِلِ حَوالَي السّاعَةِ الثّانِيَةِ ظُهْرًا كُلَّ يَوْمٍ، وَغالِبًا ما يَتَناوَلُ الغَداءَ مَعَ والِدِهِ وَوالِدَتِهِ. وَمَرَّتَيْنِ في الأُسْبوعِ، كانَ يَعودُ إِلى المَدْرَسَةِ مَعَ عَلِيٍّ في فَتْرَةِ ما بَعْدَ الظُّهْرِ لِلْقِيامِ بِأَنْشِطَةٍ لا صَفِّيَّةٍ. أَمّا سَعْدٌ وَسَمَرُ فَكانا مَشْغولَيْنِ بِحَياتَيْهِما وَجَداوِلِهِما غَيْرِ المُنْتَظِمَةِ.

وَعِنْدَما بَدَأَ عُمَرُ يَشْعُرُ بِالرّاحَةِ، وَبِأَنَّ الأُمورَ تَسيرُ عَلى ما يُرامُ، وَأَنَّ الحَياةَ مِثالِيَّةٌ، بَدا والِدُهُ قَلِقًا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ كَثيرًا؛ فَأَدْرَكَ عُمَرُ أَنَّ شَيْئًا ما قَدْ حَدَثَ. لَكِنْ ما هُوَ؟

وَفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ، عادَ والِدُهُ إِلى المَنْزِلِ مُبْكِرًا وَقالَ لَهُ: «سَأَذْهَبُ لِلتَّسَوُّقِ يا عُمَرُ، تَعالَ مَعي. قَدْ أَحْتاجُ إِلى مُساعَدَتِكَ.»

قادَ الأَبُ السَّيّارَةَ، ثُمَّ تَوَقَّفَ عِنْدَ الزّاوِيَةِ وَشَرَحَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ.

«أَتَدْري يا عُمَرُ؟ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ مِنَ الصَّعْبِ الحِفاظَ عَلى هَذا السِّرِّ لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ. لِذا، كانَ عَلَيَّ فِعْلُ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ الأُمورُ عَنِ السَّيْطَرَةِ. فَإِذا لَمْ نَقُلْ شَيْئًا، سَتَسْمَعُ سَمَرُ مِنْ صَديقاتِها عَنِ البَيْتِ عِنْدَما تَدْعوهُنَّ يَوْمًا وَيَرْفُضْنَ المَجيءَ.»

«فَهِمْتُ. وَإِذا بُحْنا بِالسِّرِّ، فَسَتَغْضَبُ أُمّي وَسَمَرُ لِأَنَّنا لَمْ نَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ، وَجَعَلْناهُما تَمُرّانِ بِذَلِكَ. إِذًا، ماذا سَنَفْعَلُ؟»

صَمَتَ والِدُهُ بِضْعَ ثَوانٍ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَواصَلْ مَعَهُ بَصَرِيًّا؛ الأَمْرُ الَّذي أَقْلَقَ عُمَرَ. لِذا، ظَلَّ يَنْظُرُ إِلى عَيْنَيْ والِدِهِ مُحاوِلًا قِراءَتَهُما. ثُمَّ، بَعْدَ دَقائِقَ مِنَ الصَّمْتِ- وَالَّتي بَدَتْ لِعُمَرَ وَكَأَنَّها ساعَةٌ- تابَعَ والِدُهُ الحَديثَ: «زُرْتُ المالِكَ في مَكْتَبِهِ هَذا الصَّباحَ.»

فَاقْتَرَبَ عُمَرُ مِنْ والِدِهِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِالقَلَقِ، وَنَظَرَ مُباشَرَةً إِلى عَيْنَيْهِ.

«أَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ القِصَّةِ، فَفَرِحَ كَثيرًا، وَقَرَّرَ أَنْ يُعْطينا أَحَدَ البُيوتِ في المَشْروعِ الجَديدِ الَّذي أَنْهَوا بِناءَهُ لِلتَّوِّ. يُمْكِنُنا الانْتِقالُ إِلى هُناكَ في أَيِّ وَقْتٍ نُريدُهُ. أَرَدْتُ فَقَطْ أَنْ تَكونَ أَوَّلَ مَنْ يَعْرِفُ.»

«أووو يا أَبي... لَكِنْ، كَمْ يَبْعُدُ البَيْتُ الجَديدُ عَنْ هُنا؟ هَلْ سَأُضْطَرُّ إِلى الانْتِقالِ مِنْ هَذِهِ المَدْرَسَةِ؟ وَهَلْ سَأَتَمَكَّنُ مِنْ رُؤْيَةِ عَلِيٍّ؟»

«أَعْرِفُ مَدى أَهَمِّيَّةِ هَذا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ. عَرَضَ عَلَيَّ المالِكُ مَشْروعَيْنِ، فَاخْتَرْتُ المَشْروعَ الَّذي يَقَعُ عِنْدَ الزّاوِيَةِ هُنا.»

«أَبي...» لَمْ يَسْتَطِعْ عُمَرُ قَوْلَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، فَاقْتَرَبَ مِنْ والِدِهِ وَعانَقَهُ، وامْتَلَأَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ. الآنَ، لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْتَفِظَ بِأَسْرارٍ عَنْ أُمِّهِ. وصارَ بِإِمْكانِهِ الاسْتِرْخاءُ وَالاسْتِمْتاعُ في المَدينَةِ الكَبيرَةِ، والخُروجُ أَكْثَر. وَلَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ القَلَقُ بِشَأْنِ الغُرَفِ الأَرْبَعِ الفارِغَةِ الَّتي قَدْ تَكونُ مَسْكونَةً بِالجِنِّ إِذا بَقِيَتْ مُغْلَقَةً.

وَحينَ عادا إِلى المَنْزِلِ، أَخْبَرَ الأَبُ الأُمَّ بِأَنَّ المالِكَ يُريدُ «الفيلّا»، وَأَنَّهُ باعَهُمْ بَيْتًا جَديدًا بِسِعْرٍ مُناسِبٍ جِدًّا. وَخِلالَ عُطْلَةِ نِهايَةِ الأُسْبوعِ، ذَهَبَ الجَميعُ لِرُؤْيَةِ البَيْتِ الجَديدِ. كانَ قَريبًا جِدًّا مِنْ بَيْتِهِمُ الحالِيِّ، لِذا بِإِمْكانِ عُمَرَ البَقاءُ في مَدْرَسَتِهِ. وكانَتْ فيهِ

حَديقَةٌ. وعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّها أَصْغَرُ بِكَثيرٍ مِنْ حَديقَتِهِمُ الحالِيَّةِ، إِلّا أَنَّ عُمَرَ بِإِمْكانِهِ الاحْتِفاظُ بِحَيَواناتِهِ فيها. وَلِأَنَّ البَيْتَ قَريبٌ، فَبِإِمْكانِ عُمَرَ وَعَلِيٍّ زِيارَةُ بَعْضِهِما بَعْضًا سَيْرًا عَلى الأَقْدامِ. تَحَمَّسَتْ أُمُّ عَلِيٍّ لِلْبَيْتِ الجَديدِ كَثيرًا؛ لِأَنَّها كانَتْ تُفَضِّلُ بَيْتًا أَصْغَرَ. وَهَكَذا، أَصْبَحَ الجَميعُ سُعَداءَ. حَسَنًا، كانَتْ سَمَرُ تُفَضِّلُ غُرْفَتَها السّابِقَةَ، وَلَكِنَّها لَمْ تُمانِعْ. أَمّا سَعْدٌ فَقَدْ حَصَلَ عَلى غُرْفَةٍ في الحَديقَةِ مَعَ حَمّامٍ خاصٍّ بِها، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَحْتَفِظْ بِها طَويلًا؛ فَقَدْ سَمِعَ أَنَّها تُسْتَخْدَمُ عادَةً مِنْ قِبَلِ السّائِقينَ، لِذا قَرَّرَ اسْتِخْدامَها كَمَكانٍ لِلِقاءِ أَصْدِقائِهِ، وَالانْتِقالَ إِلى إِحْدى الغُرَفِ في الطّابِقِ العُلْوِيِّ.

وَفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ، بَعْدَ أَنِ انْتَقَلوا وَاسْتَقَرّوا في المَنْزِلِ الجَديدِ، نَزَلَ عُمَرُ إِلى الصّالَةِ وَقَدْ أَنْهى حَلَّ واجِباتِهِ المَدْرَسِيَّةِ، فَقالَ لَهُ والِدُهُ: «السّاحَةُ كَبيرَةٌ بِما يَكْفي، وَتَتَّسِعُ لِعَدَدٍ قَليلٍ مِنَ الحَيواناتِ الإِضافِيَّةِ؛ رُبَّما لِبَعْضِ الدَّجاجِ. وَكَما سَبَقَ لي أَنْ وَعَدْتُكَ، يُمْكِنُنا بِناءُ أَقْفاصٍ وَتَرْبِيَةُ...»

فَرَفَعَ عُمَرُ يَدَهُ بِسُرْعَةٍ، وَأَوْقَفَ والِدَهُ عَنْ إِكْمالِ فِكْرَتِهِ قائِلًا لَهُ: «أَبي، لا أَعْتَقِدُ أَنَّني أُريدُ أَرانِبَ؛ إِذْ سَأَكونُ مَشْغولًا جِدًّا بِالأَنْشِطَةِ المَدْرَسِيَّةِ. رُبَّما يُمْكِنُنا إِحْضارُ بَعْضِ الدَّجاجِ حَتّى تَحْصُلَ أُمّي عَلى بَيْضٍ طازَجٍ. لَكِنَّ شَهْبا تَكْفيني كَحَيَوانٍ أَليفٍ في البَيْتِ؛ فَهِيَ تُحِبُّني، وَحَجْمُها الكَبيرُ لَنْ يَسْمَحَ لَها بِالزَّحْفِ داخِلَ جُدْرانِ بَيْتِنا الجَديدِ.» ثُمَّ غَمَزَ أَباهُ.

«ما رَأْيُكَ في زِيارَةِ المَزْرَعَةِ غَدًا؟ فَهُناكَ الكَثيرُ مِنَ الحَيَواناتِ لِتَلْعَبَ مَعَها.»

فَابْتَسَمَ عُمَرُ وَقالَ: «هذا رائِعٌ!»





المؤلِّفة

إيمان الخطيب كاتبة شغوف، أصدرت أكثر من 50 كتابًا مُصوَّرًا ورواية ذات فصول للأطفال. تعشق الحكايات والأشغال اليدويّة، وتقضي وقتًا ممتعًا مع الصّغار وهي تشعل أخيلتهم بقصص مشوّقة وأنشطة إبداعيّة. بفضل أسلوبها الدّافئ والمُرحِّب، أصبحت شخصيّة محبوبة في الوسط الأدبيّ، تُلهِم القرّاء النّاشئين لاكتشاف سحر الكتب.

الرّسّام

علي الزيني رسّامٌ مبدعٌ، رسم أكثر من 80 كتابًا للأطفال. نال عدّة جوائز، منها جائزة الشّارقة لكتاب الطّفل عام 2018، وجائزة اتّصالات. كما وصلت بعض أعماله إلى القوائم القصيرة لجائزة اتّصالات وجائزة «ليفينغ ناو»، وظهرت كتبٌ تحمل رسوماته في قوائم «الغراب الأبيض» ومكتبة IBBY العالميّة.